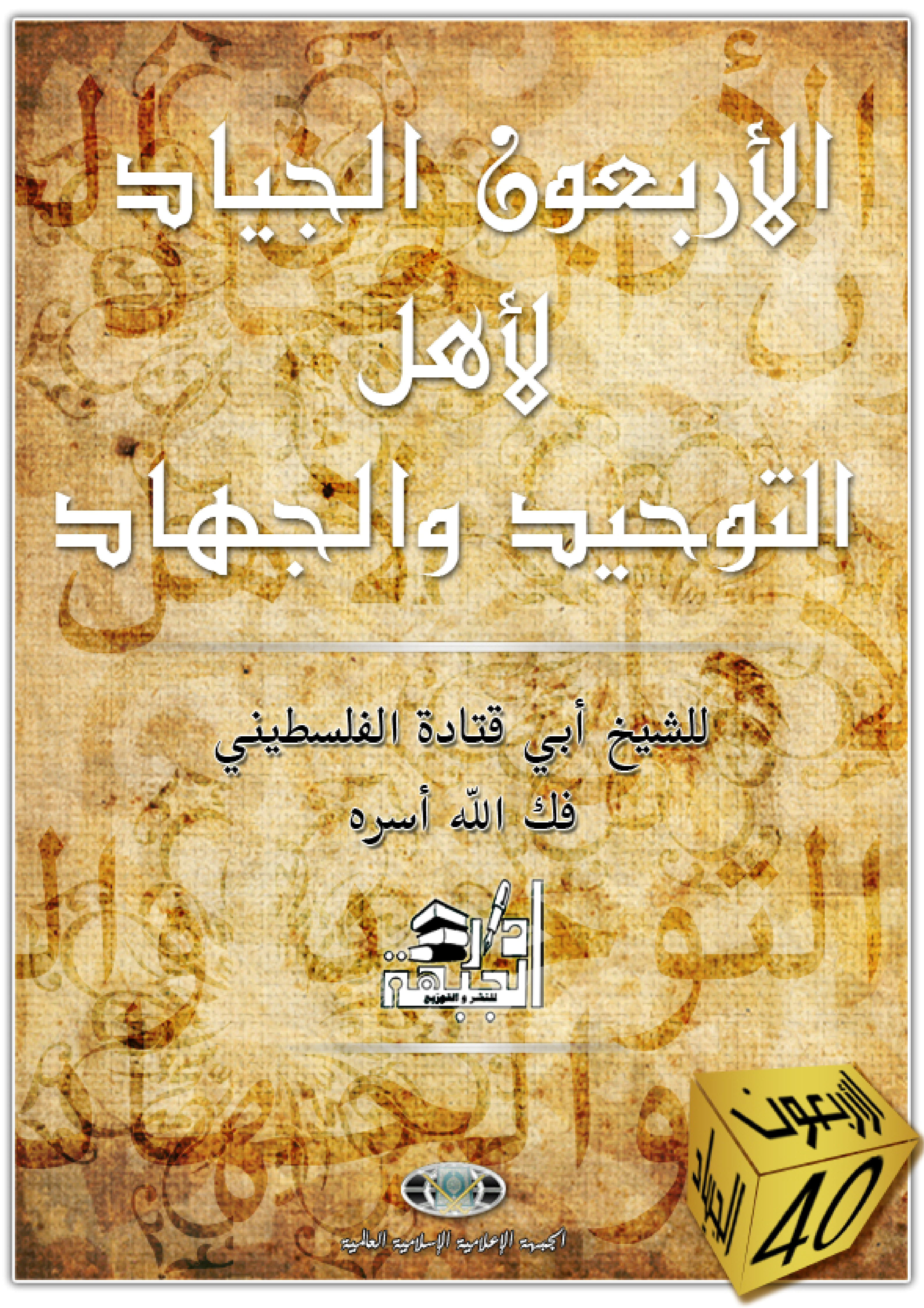

الأربعون الجهادية
لأهل
التوحيد والجهاد
للشيخ أبي قتادة الفلسطيني
فك الله أسره
دار الجبهة للنشر والتوزيع
الجبهة الإعلامية الإسلامية العالمية
الأربعون الجهادية
40

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهــــداء

إلى أهل التوحيد:

- **علماء**

و

- **مجاهدين**

و

- **دعاة**

و

- **عبّاد**

الذين..

(صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدّلوا تبديلا)

أبو قتادة

بسم الله الرحمن الرحيم

توطئة - خطبة الكتاب

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبيه محمد الأمين وعلى آله الطيبين الطاهرين وعلى صحبه الغر الميامين، أما بعد:

في أيام ربانية عشتها بفضله ورحمته، ومنذ اللحظة الأولى فيها وأنا خائف أن تهرب مني، فكنت أجاهد نفسي وأنا أحاول أن ألتقط وأجمع وأنظر وأراجع، منذ تلك اللحظة التي أغلق فيها السجان باب الغرفة الصغيرة الثقيلَ عليّ وحيداً وأنا في هم رجح على كل الهموم: كيف أقتنص لحظات هذا الزمن؟ إذ همّي ألا يسير الزمن مسرعاً، فالربح كثير وفير، وكان من نعم الله تعالى على هذا (الإنسان) أن حبّب إليه صحيح الإمام البخاري، حباً صنعه علم المحققين والدارسين أنه أعظم كتاب في الأرض بعد كتاب ربنا سبحانه، وحباً تكامل تباعاً مع كثرة الرد والمراجعة، ومع وجود غيره من الكتب الستة بين يدي إلا أنني طوال عامين وزيادة لم أستطع قط و لم أنجح في أي محاولة أن أتحول إلى غيره من كتب السنة، أذهب إليه مرة من أجل حكم شرعي، ومرات من أجل إلتقاط الحِكَم والعظات، وفي أكثر المرات يكون الذهاب من أجل أن أقرأ قصة (الإنسان)، نعم فإني أعترف أن أكثر ذهابي لهذا الكتاب في تلك الفترة من أجل قراءة الرواية الحقيقية للبشرية، وللحقيقة أن أكثر ما يبهرني ويبهجني في كتاب الله تعالى، أني مذكور فيه (لقد أنزلنا إليكم كتاباً فيه ذكركم أفلا تعقلون)، فأنا أعيش اليوم في زمن الصور والخيالات، فالبهارج تعترض طريقي في كل مرحلة وزاوية، والأصباغ منثورة بمكر حرفي على كل الصور، والمعروض كله خادع، ولكل صورة سيرة كتبها دهاقنتها وعبّادها ورجالها، هذا صراع زماني الذي أدعي أنه خِدَاع لم يكن بهذه القدرة على مر التاريخ، كتاب الله يسميها فتناً، لكن قضيتي قضية الوعي الحقيقي لهذا العقل المتنازع عليه، وقضية الدين الذي قد سُرِق وتنازعه اللصوص وقاطِعو الطريق.

قراءة (الإنسان) وروايته وتاريخه وحقيقته في كتاب الله والسنة النبوية هي التي تحقق العبرة، أو أزعم أنها حققت العبرة لي، فقد عانيت مشكلة القراءة الغيبية للكتاب والسنة، وحين أردت إنزال هذه الحوادث على الأرض اكتشفت حقيقتها وأنها سننية فيها أشخاص أرضيون وبشر حقيقيون، فهل جرّبتَ أخي مرة وأنت تتهيأ لفتح صحيح البخاري أن ترتب عقلك ووعيك أنك ستقرأ كتاب حكمة، أو أن تقرأ رواية أو سيرة، أو أن تقلبه كما تقلب ديوان شعر تبحث فيه عن جمال التصوير وروعة البيان؟! إن فعلت ذلك ستعرف ما أعني وهو أن صحيح البخاري –مثلاً– هو كتاب (الإنسان)؛ (الإنسان) بسيرته الأرضية، وسننها الواقعية، حينها سترى نفسَك



وأشواقك وحبك وبغضك وقوتك وضعفك وفرحك وألمك ونجاحك وإخفاقك، وحينها ستَعبُر بكل قيم الحق إليك فتحقق العبرة والعظة.

أصدقك أخي –شهد الله– أني كنت ألغي من عقلي ونفسي حين أفتح صحيح البخاري أني سأقرأ كلام نبي يعلم ويحكم ويعظ، أو أني سأقرأ سيرة نبي يوحى إليه، بل كنت أهيّئ نفسي كثيراً لأعرف هذا الإنسان وعقله وقلبه، فأنا أريد أن أكتشف من هو من كلامه، لأن البيان هو إبانة اللسان عن الإنسان، فأنا أريد أن أعرف من هو، ومع كل قول وكل حدث كنت أرتعش ارتعاشة الإعجاب والتقدير والتعظيم، وأردد: ياله من قائد إمام، فالسعيد من سار وراءه وضل من عصاه.

من حقي أن أقول هنا –لا لأمدح نفساً يكون المدح سبباً لذمها، ولكن لن أذمها لأستبطن المدح مكراً– أقول: لقد قرأت شعراً كثيرا، من قديمه وحديثه، وقرأت كلاماً كثيراً، وقرأت سيراً كثيرة، وقرأت كتباً كثيرة، حتى صارت القراءة صفتي، وكانت رحلة القراءة ابتداء من أجل المتعة، فقد جبلت على حب هذه المتعة، ثم تحوّلت القراءة إلى محاولة معرفة الإنسان الذي أقرأه لأعرف في النهاية من أكون وقبل ذلك من يكون، وقد كنت أرى حجباً كثيرة غطت كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وكتب أسلافنا، ليس حجاب جهلنا فقط، لكن تلك الحجب النفسية الكثيفة، ذلك أننا لا نقرأ هذه الكتب بحثاً عن أنفسنا، أي بحثاً عن (الإنسان)، بل نقرؤها وكأنها لواقع غير الواقع الأرضي الذي نعيش فيه، لقد رأيت الكثير في زماني مما قرأته هناك؛ في الكتاب والسنة، رأيت أحداثاً ورجالاً لا تختلف قط إلا في الأسماء، وكنت أعجب لمن عظّم هذين المصدرين كيف لا يمدح من مدحه الكتاب ولا يذم من ذمه الكتاب، مع أنه لا فرق بينهما، وراعتني هذه المفارقة المؤلمة كثيراً، والحقيقة أن السبب –وأقول ذلك مطمئناً– أن الأسماء هي الحواجز، وأن (العناوين) قد ألهت الناس عن الحقائق، فقلت: لأقرأنّ بلا حواجز ولا عناوين، سأقرأ (الإنسان) بواقعه وسننه الأرضية في الكتاب والسنة لعلّي أبلغ إلى قراءات الأوائل التي صنعت الهداية، فهم جاؤوا إليها ليسمعوا ما يقول ويعرفوه من قوله هو، فانتهت قراءتهم إلى أعظم إيمان وأجل تسبيح: (**ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك فقنا عذاب النار**). وكانت معضلة أخرى هي معضلة العبرة والعظة، فأهل الإسلام كلهم يرددون: أن لا سعادة إلا بالعودة إلى الكتاب والسنة، أي أنهما مصدر صلاح (الإنسان) وسيرته ووجوده في زماننا هذا، فكيف يتم العبور إذا كان (الإنسان) في زماننا ليس هو (الإنسان) المذكور في كتاب ربنا وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم؟!، وأما معضلتي الكبرى فهي اكتشاف خداع الزخارف والصور الزائفة الملونة بكل الأصباغ، فهل ستسقط هذه العناوين في زمن صار دور الكتاب والسنة عناوين فقط لكل المتعارضات، وشعارات تُتّخذ على وقائع مدعاة؟! نحن في زمن لم يبق لنا من كل هذا الإرث الإلهي إلا (البيان) وجئنا إليه من غير رجاله وهو معلق في الصحف فقط، بياناً مجرداً، ويا لفتنة عصرنا هذا، حتى البيان صار غريباً علينا فنحن معه مجرد عجم. في هذا (البيان) بقيت الرواية، القصص، الأحداث، بقيت الصور



الحقيقية لسيرة (الإنسان)، صورة الإنسان وسيرته حين يهتدي: ماذا يفعل وماذا يقول وماذا يحس وماذا يشعر، وسيرة الإنسَان حين يضل: ماذا يفعل وماذا يقول وكيف يحكم؟

لا أريد أن اقول صائحاً: "**وجدتها**"، لكن يكفي أني وجدت نفسي ووجدت راحتي وابتعدت عن (القطيع)، فلم تعد الصور الخادعة تفتنني، وسقطت قيمة العناوين عندي وكذا الشعارات، فلقد صرت أقرأ كل خبر بعيداً عن الأسماء ومن غير عناوين وشعارات، أي أنني بحق أزعم أنني حققت الخطوة الأولى لتحقيق العبرة. في هذه الرحلة (الإنسان) في كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ازددت إيماناً أن القرآن حق، ولقد ازددت إيماناً أن ما في صحيح البخاري ــ وهو ما يعنيني هنا ــ لن يقوله إلا إنسان كامل وليس هو على الغيب بضنين، ولقد عرفت حق المعرفة معنى كون الكتاب والسنة فيهما صلاح الإنسان وسعادته وهدايته، وحين بحثت عن صورة (الإنسان) المهتدي كما وجدتها في الكتاب والسنة في واقعي فإني أقسم أني وجدتها في (أهل التوحيد والجهاد)، فلقد مررت على منازل كثيرة، وترددت على موائد فكرية عدة، وطفت على المنابر أفتش وأبحث وأراقب، فأنغمس غير هيّاب بما سألاقي، وغير متعصب لما أحمل، ولكن ها أنا أقول –وأنا ذاكر لقول ربي (ستكتب شهادتهم ويُسألون)– أن أهل التوحيد والجهاد هم الذين يعبرون بحوادث وفعال وأقوال الإنسان المهتدي في كتاب ربنا وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم إلى زماننا هذا، وإنه من نعمة الله عليّ أني أعيش في زمن الصور الكثيرة الخادعة ومع ذلك فإن عيني لم يملأها إلا هؤلاء (الفتيان) في المشرق والمغرب، ومن حقي أن أقول: إن هذا الإمتلاء ليس حماساً عاطفياً مع شاب يجود بنفسه لله تعالى، لكن بوقوف حذر وتأمل جديّ، ومراجعة ودراسة لكل التهم التي تقال فيهم، ويُقذفون بها من جميع الأطراف سواء كان من مؤمن يخالفهم أو عدوّ يقاتلهم.

نعم –والله يشهد على ما أقول– أني حين تجردت من حجب الأسماء وتخليت عن هيبة الشعارات وحررت نفسي من سطوة العناوين رأيت في زماني من يفعل فعل إبراهيم عليه السلام وهو يكسر الأصنام، ورأيت من يفعل فعل البراء بن مالك وهو ينغمس في حديقة مسيلمة الكذاب المرتد، ورأيت من يبيع ملكه طمعاً في رضا الرحمن، ورأيت المهاجر في ذات الله والمأسور في سبيل كلمة الحق، وكلهم في هذا الزمن لا يجمعهم إلا اسم جامع لأوصافهم: أهل التوحيد والجهاد.

من أجل هؤلاء الفتيان أردت أن أجمل هذه الكلمات لعلي أعبُر بها إليهم فيرحمني الله –إذ القوم لا يشقى بهم جليسهم– وذلك لأنهم يرحلون هم بالفعال، ولكنهم يقبلون –لسعة رحمة الله وسعة قلوبهم– أن يسير معهم من لا يحمل إلا الحب والكلمات من أمثالي.

فاللهم لا تعذب قلباً أحب كتابك وأحب كلام رسولك وأحب الفارين إليك المهاجرين في سبيلك – آمين.

فكانت هذه الباقة العطرة، الممتعة الجميلة، هذه الدرر النبوية الشريفة، جمعتها كلها من سمط اللآلئ الموسوم من قِبَل الإمام محمد بن إسماعيل البخاري: "الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه



وسلم وسننه وأيامه" عشت معها أجمل الأوقات، وكانت لها بركات المشاعر التي تغزو القلب فتثير الدمع في العين والقشعريرة في الجلد، وقد عرضت لي كما عرض الكثير غيرها لكن كان لا بد من الاختيار –وما أصعب الاختيار بين الأماثل– فكانت على قيد السلف في بعض تصانيفهم أربعون حديثاً لأمر معروف ومشهور، وإن شئت قلت: أربعون جوهرة، ثم جئت إليها وبطيش رجل مغرور حاولت أن أفك من كل –جامعة– كلمة واحدة لأقول للناس انظروا، فلم يزد هذا (الإنسان) إلا أنه ادعى، ولكن يكفيه أن يعترف أنه حاول أن يفك كلمة من (جوامع الكلم)، وأن يصف ذرة من كل جوهرة، وأن يشير إلى وجه واحد من هذه الدرة التي لا ينتهي تقلب وجوهها العظيمة، ثم إن في القلب عذر: هذا جهد المقل، والقلة مع الحب ثقيلة، ومع العذر رجاء أن أحشر مع أهل الحديث علماً ومع أهل التوحيد والجهاد فعالاً، وإني لا أملك مع هذا الطمع إلا أني أحب:

(ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم)

وكتبه

أبو قتادة

(سجن بلمارش البريطاني مساء يوم الاثنين السادس والعشرين من شهر الله المحرم لسنة ١٤٢٦ لهجرة المصطفى صلى الله عليه وسلم، الموافق ٧/ آذار، مارس/٢٠٠٥).



الحديث الأول

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، فمن قال لا إله إلا الله فقد عصم مني نفسه وماله إلا بحقه وحسابه على الله).

هذا الحديث أصل عظيم لهذا الباب –التوحيد والجهاد– فإنه يبين غاية قتال الناس ولِمَ تُشرع السيوف، وهو كما سيأتي حجة في أبواب من العلم اختلف الناس فيها قديماً وأحدث بعضها في زماننا هذا مواطأة لمذاهب وأديان باطلة، ومما يطمئن نفوس المسلمين المتمسكين بغرز الهداة الأولين أنّ الحديث النبويّ الشريف بتفصيلاته وبيانه الشافي يقطع البدع الحادثة في كل زمان، وإن زماننا ليعج بالبدع التصويرية الفكرية ذلك لأن تربتها الزمانية خصبة للتوليد، ألا وهي بيئة الهزيمة التي تعيشها الأمة المتناثرة بلا راعٍ ولا سياج وبيضة، وانتشار الرويبضات وتصدرهم المنابر التعليمية والإرشادية.

قوله: (أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله) فيه:

أن هذا القتال ليس قتالا فطرياً، فإن الأمور الفطرية لا يؤمر بها ابتداء كما هو مقرر في علم الأصول، لأن النفوس تترع إليها، كالأكل والشرب والنوم، وما ورد من الآيات والأحاديث الآمرة بهذه الأمور وأمثالها من أعمال السجية الإنسانية لم تكن ابتداء في بعضها إنما لبيان إتيانها على وجهها الصحيح، كقوله تعالى: (يا أيها الناس كلوا من طيبات ما رزقناكم ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين) [البقرة: ١٦٨] وكقوله: (يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا لله إن كنتم إياه تعبدون، إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا إثم عليه إن الله غفور رحيم) [البقرة: ١٧٢] وكقوله: (كلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين) فهذه الأوامر لبيان أحكام شرعية تتعلق بالطعام والشراب وليست أمراً بها، إذ أن الإنسان ومنه المؤمنون يعلمونها بفطرة وسجية خالصة، وأما النوع الثاني كقوله سبحانه: (ليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها ولكن البر من اتقى وأتوا البيوت من أبوابها) فإن فطرة الإنسان إتيان البيوت من أبوابها، أي حضورها من غير تكلف أن يلف حولها ليدخلها من الخلف، ولما كان الأنصار في حج الجاهلية يتكلفون دخول المدينة من ظهرها وليس من وجهها فنبههم القرآن إلى أن هذا ليس من التقوى التي يحبها الله تعالى، بل هي من التكلف المذموم، وهذا بخلاف رجوعه صلى الله عليه وسلم من مصلى العيد من غير الطريق الذي ذهب فيه إلى المصلى، ومثل قوله صلى الله عليه وسلم في رده على من أراد التعبد بترك الأكل والشرب والنكاح، فإن صدور هذه الأوامر منه لم تكن ابتداء إنما كانت رداً على من تكلف تركها تعبداً



لله تعالى، أو كأمره بالإفطار في رمضان عند مواجهة العدو لأنه أقوى لهم، فهذا أمر على غير الأصل الذي يوجبه الوقت وهو الصيام، فالمقصود أن الأمور الفطرية لا يؤمر بها الإنسان إلا لما تقدم وأشباهه كالتنبيه على أجرها وترك أضدادها من المعاصي كبيانه صلى الله عليه وسلم أجر من أتى أهله وقال: (أرأيت إن وضعها في الحرام أكان عليه وزر؟)، ومن الأمور التي يعرفها الناس بفطرهم لأنها من سجية الأثرة والتملك هي الدفاع عن أنفسهم وأموالهم وديارهم وأعراضهم، وهي غريزة لا ينفك الإنسان عنها إلا بمرض أو دين باطل يدين به، فدفاع الناس عن أموالهم وأعراضهم وما يملكون من الفطرة التي توجبها غريزة الأثرة وحب التملك، ومن ذلك دفع المعتدي لرد إيذائه وظلمه، فهذه أمور لا تأتي بها الشريعة إلا على ما تقدم من الوجوه وذلك كقوله صلى الله عليه وسلم **(من مات دون ماله فهو شهيد)** كما سيأتي شرح هذا الحديث إن شاء الله، فما أمر المؤمنون من القتال في كتاب الله تعالى وفي الحديث -وهي كثيرة- إنما هي على غير المعنى الذي تعرفه النفوس بفطرتها وغريزتها، بل ما تعرفه الدواب في سلوكها وغريزتها، وهذا المعنى لا تنشط له هذه النفوس إلا بتحريض إلهي طلباً للأجر والمثوبة ولذلك قال تعالى عن هذا النوع من القتال: **(كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لاتعلمون)**، وقد حذر النبي صلى الله عليه وسلم من تركه وقال: **(من لم يغز ولم يحدث نفسه بالغزو مات على شعبة من نفاق)** فهذه لا يمكن فهمها إن أنصف المرء إلا على قتال واحد وهو القتال الذي يشرع فيه الإنسان ولا يكون رداً على قتال، إذ كيف يحدث المرء نفسه أن يغزو في رد العدوان إلا بتمنيه أن يغزوه الأعداء، وهذا لعمر الحق فساد لا يقوله عاقل، ولو تدبر الناس هذا لوجدوه من أعظم الردود على من زعم أن القتال لا يكون إلا لهذه المعاني الإنسانية الجامعة التي توجبها غريزة الأثرة الإنسانية إذ هذا النوع من القتال تترع له النفوس دون التحريض الشديد الوارد في الكتاب والسنة، وهذا ما هو مشاهد في حياة البشرية وتاريخ الأمم، ولما كان القتال في الإسلام على معنىً آخر وهو نشر الإسلام ومبادئه وتشريعاته فإن الأمر جاء به ابتداء في الكتاب والسنة ومنه قوله صلى الله عليه وسلم: **(أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله...)** فقوله: **(أمرت)** يدل على وجوبه وهو المتفق عليه عند أهل الإسلام الأولين وهو أن الجهاد واجب على الإمام ومن استنفره لهذا النوع من القتال، وهذه اللفظة **(أمرت)** تدل على أن هذا النوع من القتال هو حق لله وحده ليس للعبد منه نصيب، وردّ العدوان نصيب العبد فيه أظهر من حق الله تعالى، ومعلوم أن أمر الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم هو أمر لعموم الأمة إلا بدليل يخصه، وهذا أمر يعم خلفاء الرسول صلى الله عليه وسلم ولا شك. وقوله: **(أن أقاتل)** فيه بيان أن هذا قتال ابتدائي يشرع فيه أهل الإسلام ولا يحتاجون إلى ظلم غيرهم أو عدوانهم ليفعلوه، وفيه: أن لفظ (القتال) ليس هو (القتل) إذ أن (القتل) هو قصد شخص بعينه للقتل لسبب مخصوص كالقتل صبراً أو غيلة كقتل المرتد أو الزاني المحصن أو الأسير أو المحارب في قوله تعالى: **(إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف)**،



وكما قتل محمدُ بن مسلمة رضي الله عنه مع سرية كعبَ بن الأشرف اليهودي لما كان من سوء مقالته وشعره في أمهات المؤمنين، والحديث هنا يتكلم عن (القتال)، وهو الذي يبدأ بالدعوة وإقامة البلاغ العام على أمة من الأمم ثم يقصدهم بجمع حتى يزيل شوكتهم ويخضعوا لحكم الإسلام، أو يقبلوا قبل ذلك دفع الجزية. واللفظ (أقاتل) يدل على الابتداء في الفعل، وهو يؤيد ما تقدم من الكلام ويشهد لذلك ما قال (حتى يقولوا) فإن (حتى) تدل على انتهاء الغاية كما هو معلوم من حروف المعاني، وقوله: (حتى يقولوا لا إله إلا الله) يدل على علة هذا القتال الواجب، وهو الإسلام، والإسلام يعرف بالكلمة أي بـ(لا إله إلا الله) كما يعرف بالدلالة والتبعية، فالدلالة كالصلاة وأكل ذبيحة المسلم كما ورد في الحديث، والتبعية للوالدين وللدار، وهذه قد تتعارض (أي الكلمة والدلالة والتبعية) وحينئذ يعمل بالأقوى والقرائن، وتبقى الكلمة هي الأقوى إلا أن يأتي ناقض لها يدفعها، كمن قال لا إله إلا الله وسجد لصنم أو أحل أمراً مجمع عليه ليس لمثله جهلُه، أو سبّ الله أو الرسول، فحينئذ لا تنفع الكلمة، والإسلام ليس هو الكلمة، لكن الكلمة شرط الإسلام، فإن المرء يسلم بالكلمة وشروطها الظاهرة والباطنة، كالانقياد لله ولرسوله، لقوله تعالى: (فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم) وإقامة الصلاة من شروط الكلمة كما هو الصحيح، ومن شروطها ترك النواقض وأبوابها كثيرة جداً أعلاها الشرك بالله تعالى كإثبات المثل والإبن والندّ، والحديث يدل على أعلى الدلالات في إثبات الإسلام وهو الإتيان بالكلمة وقد يتعذر التحقق من إثباتها في الطوائف فيصار إلى حقوقها التي تدل عليها كالأذان وهو دليل الصلاة كما ورد في الصحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم كان ينظر قبل غزوة القرى أذان الفجر فإن سمعه تركهم وإلا غزاهم، وهذا الحديث (أي حديث أبي هريرة رضي الله عنه) جاء مجملاً في بيان علة هذا القتال وقد فُصِّل في حديث ابن عمر رضي الله عنهما في الصحيحين قال: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام وحسابهم على الله) وقد آثرت حديث أبي هريرة رضي الله عنه لهذا الباب لما فيه من بيان مقصد الجهاد والقتال وطريقة الدعوة للتوحيد، إذ أن ميل النبي صلى الله عليه وسلم ونوّابه وخلفاؤُه كانوا يعرضون الإسلام والدخول فيه عن طريق الكلمة ثم يبينوا لهم حق هذه الكلمة ومن حقها الصلاة والزكاة، والصحيح أن المباني الأربعة هي من أركانها، لا يصح إسلام المرء بدونها، ومن تركها فقد نقض الكلمة، وهذا مذهب كبار الصحابة رضي الله عنهم، وكلمة التوحيد معناها إخلاص عبودية المرء لله وحده ونفيها عمن سواه، إذ لا يستحق العبادة أحد سواه، والتأله هو التعبد، ومبنى التعبد على القبول والانقياد أصلاً ونفي الحرج وجوباً والتسليم إحساناً وهو معنى موجود في قوله تعالى: (فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً) فهذه مراتب العبادة كما قال أهل العلم، ومبعث العبادة هو الحب والخوف، والحب ينشأ من أمرين كمال المحبوب في ذاته وإحسانه إلى غيره وهذا يوجب الحمد كما قال



النبي صلى الله عليه وسلم: (**لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك**) وقوله: (**أحبوا الله لما يغذركم من نعمه**). والحب لكمال المحبوب أعظم من الحب للإحسان، فيكون الحمد لذلك أعظم من الحمد على النعمة، وإن كان كلاهما من موجبات الحمد لله تعالى، وأما الخوف فيكون لأمرين العظمة وخوف العقاب، ومعرفة العظيم توجب الحياء المانع من السوء الذي يغضب العظيم بلا نظر إلى العقاب، كما كان بعض السلف يقول: (هب أنه غفر لي فأين حيائي منه؟)، والخوف من عقابه توجب ترك المنهي عنه بالنظر لعاقبة الغضب وهو عقاب القادر العظيم العادل، والخوف الأول –بسبب الحياء– أعظم وأجل من الثاني وإن كان كلاهما من الإيمان بالله تعالى، والعباد يتفاوتون في الإيمان تفاوتهم في هذه الأبواب، وقد تنازع السلف أيهما أعظم وأجل قدراً في ألفاظ الذكر هل الحمد أم كلمة التوحيد، مع قول الأكثرين إن لم يكن اتفاقاً أن كلمة التوحيد أعظم من التسبيح، لأن التسبيح نفي النقائص والحمد إثبات الكمال، والإثبات أجل من النفي وأعظم قدراً، وفي الحديث: (**التسبيح نصف الميزان، والحمد تملؤه**)، وفي الأذكار النبوية يكون التسبيح مقروناً بما يدل على الكمال كقوله صلى الله عليه وسلم: (**سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم**)، والذين فضلوا الحمد على كلمة التوحيد لأنهم قالوا إن الحمد يتضمن التوحيد، والصواب أن كلمة التوحيد أفضل في إثبات الأصل وكلمة الحمد أفضل في إثبات الكمال، والله تعالى أعلم.

قوله: (**فمن قال لا إله إلا الله فقد عصم مني نفسه وماله إلا بحقها وحسابه على الله**) دل على أن النفوس والأموال مباحة في الأصل دون التوحيد، وأن أموالهم –أي المعاندين المشركين– كما هي أنفسهم غير معصومة، وليس أحد الأمرين مرتبط بالآخر (أي القتال وإباحة الأموال والأنفس)، فالمقدور عليه لا يتخلف بسبب الممتنع، والمفهوم هنا ممتنع، والمفهوم هنا أن الإباحة لا تكون إلا بالقتال، لأن سببها هو ترك الكلمة أو الإتيان بنواقضها، فالقتال ليس سبباً لغيره، بل هو لسبب وهو الكفر، فتخلف القتال لا يسقط إباحة الأنفس والأموال مع بقاء السبب الموجب للقتال وهو الكفر، فمن علق حكم الإباحة على علة القتال للمفهوم فقد قال أمراً عجباً غريباً.

والحديث يبين الأصل وهو قتال المشركين عموماً بلا تفريق مع وجود موانع أخرى للقتل كالذمة والعهد، وقد جاءت بذلك الشريعة، فالذي مع كفره وكذا المعاهد لا يقتل، كما أن قوله: (**بحقه**) أي أن الكلمة لا تعصم من القتل على الدوام إنما تعصمه في الابتداء، والهاء في حقه تعود على الله سبحانه، فإن لله حقوقاً أخرى على العباد غير الكلمة بعضها يوجب القتل أو يجيزه مفصلة في الشريعة لطول ذكرها، وفي أحاديث أخرى قوله: (**بحقها**) أي الكلمة، وقد تقدم حديث ابن عمر رضي الله عنهما وفيه: (**بحق الإسلام**) وكلها على معن واحد، ولا اختلاف.

قوله: (**وحسابه على الله**) إيكال أمر الباطن إلى الله تعالى، لأن الشريعة وأحكامها في الدنيا على الظاهر بلا خلاف، فلا ينقب على قلوب الناس وأستارهم ما لم تبدُ منهم القرائن، فإن جاء الظاهر الصريح فهو المقدم على



غيره من الدعاوى، كالزنديق وغيره في دعواه الإسلام مع ظاهره المخالف لذلك، ولا يقوم مقام الظاهر المعتبر شيء، ومسألة إذا تعارض الظاهر مع الأصل لا اختلاف فيها إذا كان الظاهر بين صريح خلا من المعارض الموافق للأصل. وقوله: (وحسابهم على الله) يدل على أن القضاء بالظاهر لا يغير حكم الباطن على الصحيح في أقوال أهل العلم، فإن قضاء القاضي لا يثبت الحقوق ديانة، وهذا بيّن في قوله صلى الله عليه وسلم: (فمن قضيت له من غير حقه فإنما أقطع له قطعة من النار) وأدلة اخرى. وهذا الحديث ورد في ألفاظ متعددة كما تقدم من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، وورد عن أنس رضي الله عنه في البخاري: (أمرت أن أقاتل الناس: يعني المشركين، حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله، فإذا شهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وصلوا صلاتنا واستقبلوا قبلتنا وأكلوا ذبيحتنا فقد حرمت علينا دماؤهم وأموالهم إلا بحقها)، وعند مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه هذا قوله: (حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله ويؤمنوا بي وبما جئت به).

من فوائد هذا الحديث:

١. وجوب جهاد الدعوة وقتال المخالفين للتوحيد، ونبوة محمد صلى الله عليه وسلم، وشرائع الإسلام على الإمام ومن استنفره، وفي الحديث حجة لمن قال من أهل العلم كالشافعي أن علة القتال هي الكفر لا الحرابة كما قال آخرون، والمحارب بإجماع العلماء هو كل كافر لم يكن له ذمة أو عهد أو أمان، والخلاف في هذه المسألة يسير لا يترتب عليه كبير خلاف كما توهّم بعض الجهلة المعاصرين كمن فسروا الحرابة بالقتال والعدوان، فليست الحرابة هي العدوان بلا خلاف، إنما المحارب هو من تقدم تعريفه، ولما ظن هؤلاء الجهال أن ما قاله الجمهور من علة القتال هو الحرابة ظنوا أن هذا ينصر قولهم الحادث البدعي بأن القتال في الإسلام لرد العدوان بل هو هو، وليس لما قالوه علة إلا الجهل بلغة العلماء والفقهاء، فإجماع الأولين من السلف والفقهاء الأربعة وغيرهم أن الجهاد واجب على الإمام للدعوة إلى الإسلام لهذا الحديث ولغيره ولقوله تعالى: (قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرّمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون) ولقوله تعالى: (فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم إنّ الله غفور رحيم) فإن قال قائل فبمَ تفترق أقوال أهل العلم على هذا المعنى فيجاب: بما يترتب عليها من مسائل فيمن يجوز للمسلمين قتله من غير المقاتلة إن وضعت الحرب أوزارها ودخل المسلمون الديار عنوة، فهل يُقتل العسيف (أي الأجير) أي العامل في الأرض من الكافرين من الكفار مثلاً؟ فقال الشافعي: يقتل و لم يصحح النهي عن قتله، وقال الآخرون بأنه لايقتل لأنه صار مقدوراً عليه، واختلفوا في الرهبان خارج الطوائف الكافرة وديارهم فقال الشافعي ومن معه: يُقتلون لعلة الكفر، وقال غيره: لا

يقتلون لعدم تحقق العلة وهي الحرابة، وأما الديار والطوائف التي لم يعاهدها الإمام لمصلحة و لم تسلم أو تدفع الجزية فإنها تقاتل بلا خلاف حتى تصير ديار إسلام، فالشافعي ومن معه أجاز قتل كل كافر لم يأت الدليل على عدم قتله كالمرأة والصبي، والآخرون قالوا الأصل عدم القتل قصداً، واتفقوا على أن ما أصابه المسلمون من الكافرين هؤلاء بغير قصد لا حرج فيه، واحتج الجمهور بقوله صلى الله عليه وسلم في نهيه عن قتل النساء: (ما كانت هذه لِتُقَاتل).

٢. لا يشكل على هذا الحديث قوله صلى الله عليه وسلم: (لا تتمنوا لقاء العدو وإذا لقيتموهم فاصبروا) لأن هذا الحديث على معنيين: أولاهما: تمني القتال، وهذا يستلزم وجوباً قدرياً وهو تمني سببه وذلك لما يتمنى بعض المجاهدين الغنيمة، أو لرغبة بعضهم بالقتال، وقد نبّه رسول الله صلى الله عليه وسلم على هذا المعنى في حديث فتح خيبر فعن سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول يوم خيبر: (لأعطينّ الراية غداً رجلاً يفتح الله على يديه فقاموا يرجون لذلك أيهم يعطى، فغدوا وكلهم يرجو أن يُعطى. فقال: أين علي؟ فقيل: يشتكي عينيه، فأخر فدعا له فبصق في عينيه فبرأ مكانه حتى كأنه لم يكن به شيء. فقال: نقاتلهم حتى يكونوا مثلنا؟ فقال: على رسلك حتى تنزل بساحتهم ثم ادعهم إلى الإسلام، وأخبرهم بما يجب عليهم، فوالله لأن يُهدى بك رجل واحدٌ خير لك من حمر النعم)، فهذا من هذا، وهو يبين سبب النهي عن القتال، لأن تمني القتال يعني تمني عدم إسلامهم وإسلامهم خير وأعظم من غنائمَ يجنونها. وثانيهما: أن هذا الحديث (النهي عن تمني لقاء العدو) إنما قيل في غزوة الأحزاب كما في بعض رواياته، وما فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم فيها من أعمال كلها تدل على كراهية (و هو إمام المسلمين) لقاء قريش ومن معها من غطفان وثقيف والأعراب، فكوْنه صلى الله عليه وسلم لم يخرج إليهم بل تحصن في المدينة وحفر حولها الخندق، و لم ينزل إليهم أبداً خلال مدة الحصار بل كان عمله منْعَهم من المدينة، كل ذلك يدل على أن باب النهي إنما هو إرشاد إمام في اختيار خير الفعلين في رد عدوان الأحزاب، وهو من باب الشورى كما وقع في أحُد، أيخرج إليهم أم يتحصن في المدينة؟ فاختار قول من قال الخروج، وفي الأحزاب اختار عدم الخروج وقال: (لا تتمنوا لقاء العدو) وذلك لأن هذا هو خير الأمرين للمسلمين في هذه الغزوة. والأمر والله أعلم لا يخرج عن هذين القولين، وقيلت أقوال أخرى أراها ضعيفة. والقول الأول عندي أقوى وأمتن، والسبب أن الصحابة وهم أعلم بمعنى الحديث كانوا يحتجون بالحديث بعموم لفظه، ناهين عن تمني القتال مع مسيرهم إليه، وذلك إقتداءً برسول الله صلى الله عليه وسلم ففي صحيح مسلم أن الصحابي عبد الله بن أبي أوفى كتب إلى عمر بن عبيد الله حين سار إلى الحرورية يخبره أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان في بعض أيامه التي لقي فيها العدو ينتظر حتى إذا مالت الشمس قام فيهم فقال: (يا أيها الناس لاتتمنوا لقاء العدو واسألوا الله العافية فإذا لقيتموهم فاصبروا، واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف)



وفيه بلفظ آخر: (دعا على الأحزاب). والله أعلم.

٣. الحديث غيظ لأعداء الله من أهل العصر المبغضين لشرائع الإسلام، فإن أعظم نكيرهم اليوم على المجاهدين والداعين لأحكام الشريعة هو قولهم إن هؤلاء يحكمون على الناس بما هو حق لله تعالى، وأطلق بعضهم وصفنا بأننا –سكرتاريا القيامة– أي يقومون في الأرض بما هو حق لله يوم القيامة، وهذا من تمام غيظهم، والحديث حجة لهؤلاء المجاهدين والدعاة وذلك أنهم يفعلون في المشركين الرافضين لأمر الله تعالى ما هو مقدمة لما سيفعل الله بهم يوم القيامة، فهم سيعذبونهم بقتلهم وأخذ أموالهم لأمر الله لهم بذلك، والذي فوضهم لهذا الفعل هو الله كما قال تعالى: (قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم)، وكما ورد في صحيح مسلم (وقاتل بمن اتبعك من عصاك)، وأما قول المشركين المعرضين بأن قضية الإيمان والتوحيد والانقياد للشرائع هي بين الإنسان وربه ولا يحق للعباد محاسبتهم عليها فهذا دينهم الذي به يدينون، وأما ما يدين به المسلم المنقاد لحكم الله أن قضية التوحيد والإيمان والانقياد للشرائع هي حق لله أمر الله عباده بإقامتها في أنفسهم وإقامتها في الناس بالدعوة والموعظة الحسنة فإن أصروا على الإباء والإستكبار قوتلوا عليها ثم عذبوا حتى ينقادوا، ولا يضرهم قول هؤلاء الملاعين أن هذا مخالف لحقوق الإنسان وقواعد العصر فإن دين الله لا يقدم عليه مثل هذه الزبالات والعجب من بعض المفتونين من دعاة الإسلام –زعموا– يقيمون هذه الأحكام والأقوال في الفصل بين الخصومات الحاصلة بين الملحدين من العلمانيين وبين المسلمين.

فإن قيل للمجاهد من خَوَّلك وفَوَّضك لقتلي وأخذ مالي بسبب ما بيني وبين الله قيل له: إن الله أمرني بذلك ولو لم أفعل لكنت مثلك في العصيان، ولم أرَ غيظاً في قلوب هؤلاء على المجاهدين والدعاة بمثل هذه النكتة، إذ هو من قبيل الحسد الإبليسي أن الدعاة والمجاهدين يكِلون مستند أفعالهم لله والإسلام وليس لهم همّ إلا زبالات يعرفون صغارها وحقارتها.

٤. في الحديث بيان هوان الخلق على الله في الدنيا كما هو هوانهم عليه في الآخرة إن لم يسلموا له، فإن الله سبحانه خلق الخلق ليعبدوه ويطيعوا رسله وينقادوا لأمره، فإن لم يحصل هذا المقصد لم يكن لوجودهم أهمية ترعى أو تصان، بل هم هباء لا قيمة له، فما أهون الخلق على الله سبحانه من غير إسلام له، إذ لا قيمة لهم ولا لأبدانهم ولا لأموالهم ولا لملكهم ولا لسلطانهم، بل إن الله سبحانه وتعالى يسلط عليهم أهل الإيمان ليذيقوهم عذاب الدنيا قبل أن يصيروا إلى عذاب الله في الآخرة، وأما دعاوى أهل العصر أن الحقوق واحدة بين عباد الله والمشركين فهي من دعاوى إبليس والله يقول: (أفنجعل المسلمين كالمجرمين، مالكم كيف تحكمون) فما يقال إن النفس الإنسانية محترمة بذاتها دون النظر لدينها إن هو إلا هراء كلام يبرؤ منه دين الله تعالى ويبرأ منه المؤمنون، فإن قال قائل معترضاً على شرع الله بقدره: فلمَ خلق الله الكفرة إذاً؟ فيقال: إن الله خلق الإنسان ليبتليه في باب التوحيد والإيمان، وما خُلقت الدنيا إلا من أجل هذا كما قال تعالى: (و إذ قال



ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة، قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إني أعلم ما لا تعلمون) ولقوله تعالى: **(إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعاً بصيراً، إنا هديناه السبيل إما شاكراً إما كفوراً)** وإن من إبتلاء الله للمؤمنين هو معاداة الناس على هذا الباب ليتم لهم تمام حبّ الله تعالى والحب في الله، وهذا لايقع إلا ببغض أعدائه ومقاتلتهم وإن من عذاب الله لعصاته أن يسلط عليهم المؤمنين فيزهقون أنفسهم ويغنمون أموالهم، وكما تقدم إن غزو الثأر للانتقام والقصاص، وقد ينشأ في أنفسهم الألم لذلك لكن ليس كالألم الذي يصيبهم من غزو أقوام سيطوقون ديارهم فإن سئلوا لِمَ جئتم قالوا: (إن الله ابتعثنا لنخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة) فإن الغيظ الواقع على قلوبهم من هذه المقالة يفوق الوصف، وهذا من تمام عذاب الله تعالى في هذه الدنيا للكافرين وهو من هوانهم على الله سبحانه وتعالى.

إن الإسلام الذي حرم قتل الحيوان إلا لمنفعة الأكل أو لدفع ضرره هو الذي أهان الكافر وأمر بقتله لرفضه التوحيد فكان شأنه أقل من الدابة كما قال تعالى: **(إن هم إلا كالأنعام بل هم أضلّ)** فسبحانه ما أحكمه وأعدله في خلقه.





الحديث الثاني

عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: (يا معاذ وهل تدري حق الله على عباده؟ وما حق العباد على الله؟ قلت: الله ورسوله أعلم. قال: فإن حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً، وحق العباد على الله ألا يعذب من لا يشرك به شيئاً).

هذا الحديث يحوي فقهاً عظيماً للقلوب الواعية، فإنه يبين علة الوجود وأسَّ قيمته، فمن وعاها فقد أفلح وأنجح وإلا فهو من حطيم جهنم –أعاذنا الله تعالى برحمته منها– ويبين بإشارته ما للمشرك من حق إن عمل صالحاً ليعلم أهل الإيمان قيمة هؤلاء الذين يموتون على عمل صالح من غير إسلام كالذين يقاتلون من أجل أرض وغيرها وهم على عملٍ شركيٍّ وكفريٍّ:

يكفي هذا الحديث بيان المقابلة بين ما هو حق على الإنسان أن يؤديه بمنْطوقه، والعقوبة التي يستحقها إن فرَّط في أدائه بمفهومه، فإن الحق الواجب عليه أداؤُه هو عبادة الله تعالى وحده وترك الشرك به، إذ العبادة حق خالص له دون ما سواه والتوحيد شرط لقبولها وهو أجلُّ العبادات وأعلاها، فالعبد لا يأتي بعمل أعظم من التوحيد ويشهد لذلك حديث البطاقة والذي في آخره: **(فتوضع السجلات في كفة والبطاقة في كفة فطاشت السجلات وثقلت البطاقة، ولا يثقل مع اسم الله شيء)** [قال الترمذي: حسن غريب]. فمن أتى بالتوحيد فقد حقق العبادة وحقه على الله ألا يعذبه، ومن ترك التوحيد فقد ضيع أعظم الحقوق وأجلها فاستحق العذاب، فليس للعبد من حق على الله سوى هذا، أما ما يحصل من فضل إيجابي على ترك العذاب بتحقيق التوحيد فهو من باب الفضل الإلهي لا من باب المقابلة ويشهد لذلك قوله صلى الله عليه وسلم **(لا يدخل أحدكم الجنة بعمله)** فإن دخول الجنة ليس مقابلة للعمل الصالح توجب الأداء وأما قوله سبحانه وتعالى: **(ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون)** وقوله: **(وتلك الجنة التي أورثتموها بما كنتم تعملون)** وقوله: **(إن الذين قالوا ربّنا الله ثم استقاموا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون، أولئك أصحاب الجنة خالدين فيها جزاءً بما كانوا يعملون)** وقوله: **(كلوا واشربوا هنيئاً بما كنتم تعملون)** وما في معنى هذه الآيات التي تبين أن دخول الجنة معلق بالعمل فإن هذا من باب ذكر السبب، إذ لا يقع شيء في هذه الدنيا ولا في الآخرة إلا بسبب، ودخول الجنة لا يكون إلا بسبب، والسبب هو عبادة الله تعالى وحده، والجنة محرمة على المشركين، والحديث لا حجة لأحد فيه من المبتدعين الذين يجوزون على الله تعذيب المطيع ومكافأة العاصي إذ أن عدل الله وقدوسيته يأبيان هذا القول الشنيع الذي يجلُّ عنه حكماء البشر وفضلاؤهم. فإن قيل ما معنى قوله صلى الله عليه وسلم: **(لو أن الله جل ثناؤه عذب أهل سماواته وأهل أرضه**



عذبهم وهو غير ظالم لهم ولو رحمهم كانت رحمته خيراً لهم من أعمالهم) فهذا محمول على تقصير العباد لا في الشكر، فإن نعم الله تعالى توجب الشكر، ومهما شكر العبد فشكره قاصر عن أداء الواجب مقابلة، فالمطالبة متعينة في الذمة وإن كانت لرحمة الله لا تحصل، ولو حصلت لاستحق العبد الجزاء والعذاب للتقصير والتفريط فلذلك قال صلى الله عليه وسلم: (لو عذبهم عذبهم وهو غير ظالم لهم).

وقوله صلى الله عليه وسلم: (أن يعبدوه ولايشركوا به شيئاً) فيه بيان شرط التوحيد قبل العمل وأثنائه، فإنه لا يقبل الله من عمل عملاً إلا إن كان موحداً، ولا يقبل منه إلا أن أراده بهذا العمل وحده دون سواه، فالتوحيد أساس ولا بناء بلا أساس، وقصْد الله بهذا العمل شرط لطلب جزائه منه، ولو سأل سائل: فما هو جزاء المشرك على أعماله الصالحة؟ فالجواب: إن الكافر قد يقصد وجه الله بعمله مع شركه وكفره كما قال تعالى: (حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين) وغيرها من الآيات التي تبين إخلاص الكافر في دعاءه عند حاجته وإضطراره، وهذا يبين أن المشرك قد يعمل عملاً صالحا بشرطيه –التوحيد والإخلاص– مع شركه في أبواب أخرى، وقد يقصد الكافر بعمله الصالح غير وجه الله كمن تصدق وأراد الشهرة والصيت الحسن فحينئذ يكون الأمر كالتالي:

أما المشرك الذي قصد بعمله وجه الله كمشرك صلى لله وحده وحج لله وحده وتصدق لله وحده فهذا له حق على الله أن يخفف عنه من العذاب بمقدار عمله، عملاً بهذا الحديث، وعملاً بعموم الآيات والأحاديث التي تبين أن الله لا يضيع عمل عامل، وهذا مقتضى عدل الله تعالى وحكمته ورحمته، وأما تحصيل الحسنات والتي هي سبب الجنة فهو غير مستحق لها لأنها فضل إلهي لا يستحقها إلا الموحدون لما بينته الآيات والأحاديث الكثيرة.

وأما إن قصد غير وجه الله فله ما طلب لقوله تعالى: (من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد) ولقوله: (و من كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وماله في الآخرة من نصيب) وقوله: (من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون) ولحديث النبي صلى الله عليه وسلم في مسند أحمد وصحيح مسلم قوله: (وأما الكافر فيطعم بحسنات ما عمل بها لله في الدنيا، حتى إذا أفضى إلى الآخرة لم يكن له حسنة يجزي بها) وهو كذلك الموافق للعدل الإلهي المطلق، فإن العدل لا يخرم أبداً، إذ به تقوم السماء والأرض. وأما قوله تعالى: (و الذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماءً حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ووجد الله عنده فوفّاه حسابه) فهو لفعل الكافر عموماً حسنه وسيئه، صالحه وفاسده، وإن حُمِل على العمل الصالح تخصيصاً فلا تعارض لأن عمل الكافر لا ينجيه من النار بالكليّة وإن كان يخفف عنه من عذابها به، وبالتالي ليس فيه كفاية، وحاله كحال الصديِّ العطشان في الصحراء وجد بعض قطرات الماء فلم تغنه في دفع البلاء عنه.



ومفهوم الحديث أن العبد يستحق العذاب بالشرك لتركه حق الله تعالى وإتيانه بضده، وهذا مفهوم نطقت به نصوص شرعية كثيرة، فإنه لا مقصد لخلق الإنسان إلا هذا، وغيره تبع له، فإن تعمير الأرض وسعيَ الإنسانِ فيها وقيامَه بشأن نفسه والآخرين إنما تكون أهميته حين يأتي به المرء على وجه التعبد لله لأنه الموافق لمقصد خلقه ووجوده، أما إن جاء بهذه الأعمال على وجه التمتع ورغد العيش والرفاهية فإن له ما تولى ولا أجر له، ولهذا لا يستحق المدح الديني ولا نسبةَ الصلاح له، وبهذا يظهر ضلالُ الكثيرين اليوم ممن يريدون إيجاب المدح الإلهي لقوم يكفرون به ويسبونه وينسبون له الشريك والولد، أو يأبون الخضوع لأمره وشرعه، وما دعاهم لهذا إلا سوءُ طوِيَّتهم وفراغُها من عظمة الله وهيبته ولو كان لله تعالى تعزيز في قلوبهم لما جرؤُوا على هذه المقالات الشنيعة، وإذا كان العبد لا يستحق الثناء ولا رفعة الدرجات ولا تحصيل الحسنات بعمله الصالح مع توحيده إذ ليس له من حق على الله إلا أن لا يعذبه فكيف يوجب هؤلاء المتهوكون على الله أن يعطي هؤلاء المشركين فضله وكرامته وهم يسبونه ويشركون به؟! اللهم إنّا نعوذ بك من العمي والضلالة.

حين وقع هذا الحديث موقعه من قلوب العالمين والمخبتين له فإنهم نسبوا كل ما يقع لهم من فضل في الدنيا إلى الله تعالى فهم أهل الحمد لربهم، كما سيكونون كذلك في جنة النعيم، إذ حمد الله تعالى في الأولى والآخرة، وحمده حين يرون صدق وعدِه ووعيدِه لأنهم لا يرون لهم حق واجب على مولاهم المنعم الرحيم، وكلما زادت النعم كلما غمط العابدون أنفسهم وامتلأت قلوبُهم حمداً لربهم حتى يصير بهم الأمر إلى الحشر يوم القيامة تحت لواء الحمد الذي يختص به أعظم الخلق على الله تعالى وهو الذي سمّاه الله أحمدَ ومحمداً.

وأساس الكفر نسبة النعم لغير الله تعالى كما قال الله عن المشركين: **(ولئن أذقناه رحمة منا من بعد ضراء مسته ليقولن هذا لي)** ومعنى قولهم: أي أني مستحق لهذه النعم، كما قال قارون: **(إنما أوتيته على علم عندي)** أي أتتني هذه النعم لما عندي من أسبابها التي تستحقها، وأساس التوحيد هو رؤية المنعم الحقيقي لكل ما يقع على الإنسان من خير وفضل، ولذلك جاءت الآيات والأحاديث تبين النعم الإلهية، مذكرة بها لينسب الإحسان لأهله، والقرآن أغلبه على هذا الباب في بيان حق التوحيد على العبيد كقوله: **(أفرأيتم ما تمنون أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون... أفرأيتم ماتحرثون أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون... أفرأيتم الماء الذي تشربون أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون... أفرأيتم النار التي تورون أأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشؤون)** وكقوله: **(ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم الذي جعل لكم الأرض مهداً وسلك لكم فيها سبلاً لعلكم تهتدون، والذي أنزل من السماء ماءً بقدر فأنشرنا به بلدة ميتا كذلك تخرجون، والذي خلق الأزاج كلها وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون لتستووا على ظهوره ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه وتقولوا سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين وإنا إلى ربنا لمنقلبون)**.



وتذكُّر النعم وحمْد الله تعالى عليها سببٌ لزيادها والبركة فيها كما قال تعالى: ﴿ولئن شكرتم لأزيدنّكم﴾ بل إن أعظم ما يَسأل به الإنسان العابد ربه هو أن يحمده ويشكره كما قال أمية بن أبي الصلت في مدح عبد الله بـــن جدعان:

أأذكر حاجتي أم قد كفاني — **حياؤك إنّ شيمتك الحياء**

إذا أثنى عليك المرء يوماً — **كفاه من تعرضه الثناء**

فبالشكر تدوم النعم وتزيد، وإّن أعظم شكرِك لله أن تبذلَ له ما أنعم به عليك من نفسٍ ومالٍ وولدٍ.





الحديث الثالث

قال أبو سعيد الخدري رضي الله عنه: قيل يا رسول الله أيّ الناس أفضل؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (مؤمن يجاهد في سبيل الله بنفسه وماله. قالوا: ثم من؟ قال: مؤمن في شِعب من الشعاب يتقي الله ويدع الناس من شره).

صدق صيارفة الحديث حين قالوا: إن للحديث الصحيح نوراً يعرف به وإنه للكذب ظلمة يعرف بها، ومن نظر في هذا الحديث بعين التقوى ومقصد خلقه علم أنه لا يخرج إلا من فم نبي، فإنه حدَّ للعابدين حدّي الخير لمبتغيه، ومن ينظر إلى اجتهادات الناس اليوم ومن سبق عَلِم أن الكثير مما يقولونه خارج عن حد الخير والعدل، فالحديث يهدي إلى فعل الطاعة لمن قدر عليها فإن تعذّرت فالخير في اعتزال الفعل، هذا إن أراد خير دينه، وأما قول من قال –وهم اليوم كثير– إن الشر هو خيارنا الوحيد فهم كاذبون على قدر الله وشرعه معاً فإن الشر لا يكون أبداً هو خيار المؤمن في حياته، إذ أن الخير هو الأغلب والأكثر في خلق الله وقدره، والله لا يأمر بالشر ولا يرضى به ولا يحبه، لكن إن صارت مطالب الإنسان متعلقة بالهوى والشهوة، لا بالكفاية والضرورة والحاجية حينئذ يتصور أنه لابدّ له من الشر والمعصية فيفتي له هواه وشيطانه من الجن والإنس أن ضرورة الحياة تجيز له المعصية والشر، وهذا هو أساس ضلال الكثير من الفتاوى هذه الأيام، فإنهم يأخذون أحكام الضرورات ويستخدمونها للتحسينات والشهوات.

الجهاد هو ذروة سنام الإسلام، والعامل فيه قائم في الذروة من الفضائل فلذلك هو أفضل أهل الإيمان، والجهاد بالنسبة لهذا الفاضل هو عمل حياته الذي رضيه لنفسه، فيه يقضي أوقاته، وفيه باب رزقه ومعيشته، وهذا هو الذي رضيه الله تعالى لأعظم البشر بعد الأنبياء وهم أصحاب النبي محمد صلى الله عليه وسلم إذ كان الجهاد هو عمل حياتهم و لم ينتفعوا في حياتهم من مال ونعيم كما انتفعوا من حياة الجهاد ولذلك سمى الله الجهاد " حياة " كما قال تعالى: (استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم).

والجهاد درجات أعظمها أن يجاهد المرء بنفسه وماله، فإن خرج بنفسه ومال غيره فحسن لكن دون الأول في الدرجة، وإن بذل ماله دون نفسه كان كذلك، وأولى الدرجات وهو أن يخرج بنفسه وماله فلا يعود بشيء من الغنيمة فإن أصابته الشهادة فهي منزلة المنازل وأعظمها وأجلها، والله يؤتي فضله من يشاء.

قوله: (مؤمن في شعب من الشعاب يتقي الله ويدع الناس من شره) فإن المؤمن الذي لا يقدر على الجهاد وما كان في معناه من طلب العلم ونشره والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فإن أفضل ما يعمله هو الاعتزال بعيداً عن أذى الناس وإيذائهم، فالعزلة خيار إيماني أضاعه الناس اليوم من أذهانهم، وغيابه من خيارات الأعمال جرّ على



الناس الكثير من الباطل والإثم. والعزلة لها أحكامها العامة، فهي خيار لمن لم يقدر على العمل سواء من جهة نفسه أو جهة واقعة، فإن الأفضل هو العمل لقوله صلى الله عليه وسلم: (الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم خير من الذي لا يخالط الناس ولا يصبر على أذاهم)، ولكن مما خلق الله من البشر أن يكون ضيق النفس إن رأى الشر يعظ في الابتداء ثم تضجر نفسه فيتحول وعظه إلى تبكيت وقسوة فهذا في قلبه النكارة والكره فهذا يخاف على دينه وإيمانه، كما يُخاف عليه أن يقع فيما وقعوا فيه فهذا هروبه من الناس خير له وأسلم بل قد يكون بالإعراض والعظة والتنبيه، وكما قال تعالى: (وقد نزّل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزؤ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره إنّكم إذاً مثلهم)، والذي يُعرف عن السابقين هو اعتزال الناس عموماً في آخر العمر وتفرغهم للعبادة كما ذكر أهل المدينة من تفرغ للعبادة بعد الأربعين إلا من كان متكلفاً عملاً من أعمال المسلمين الواجب أداءها.

وأما الاعتزال بسبب الواقع والحال فإن الشر قد يعم ويمنع الخير ويحارب وتصم الآذان عن السماع والاهتداء فإن سنة الأنبياء هو الهجرة كما وقع لإمام الحنفاء إبراهيم عليه السلام ومعه لوط الذي آمن معه، وفي الحديث أنّه ما من نبي إلا وقد أخرجه قومه كما قال ورقة بن نوفل عندما علم نبوة محمد صلى الله عليه وسلم لما عُرض عليه من قِبَل خديجة رضي الله عنها.

والعزيمة مراتب يشرح مراتبها الرد على الذين لا يرون إلا خيار العمل بمعصية الله وكأنه لازم للمسلم، إذ نرى ونسمع الذين يسلكون سبل الباطل من الأعمال الكثيرة بحجة أنّ على أهل الإسلام أن يملؤوا هذه السبل وإلا تركت للعصاة أو غير المسلمين من المشركين والمرتدين، فدوماً حين يسألون عن دينهم الذي دانوا به حتى جلسوا هذه المجالس واقترفوا هذه الأعمال أجابوا بأن أهل الإسلام إن لم يعملوها عملها أهل الباطل، وهذا من باب تقليل الشر ما أمكن، والحديث هنا ليس على ما يجره سلوكهم من الباطل عليهم في دينهم كما نرى من واقعهم وعلى ما يجره على دين الله تعالى في أذهان الناس وعقولهم ولكن التنبيه هنا إلى أن هؤلاء القوم جهلوا أن الواجب اعتزال الباطل، فلسنا وكلاء على الناس كما قال الله لنبيه -(وما أنت عليهم بوكيل)- فالمطلوب هو تطبيق حكم الله تعالى أولاً وهو هجران الباطل -(والذيم يجتنبون كبائر الإثم والفواحش)- وقد أحسن من قال: إن فعل هؤلاء أشبه بمن يقول وقد رأى امرأة تريد الزنا ولا بدّ، فقال: أن أزني بها أنا وأسترها من الفضيحة (من باب تقليل الشر) خير أن يزني بها فاجر ويفضحها.

إن المؤمن الذي يتقي ربه ويريد سلامة دينه إن لم يقدر على الحق كما أمر الله تعالى به فإنه يهرب من الباطل ولا يأتيه، وهذه هي سيرة السلف التي عملوها وحضّوا الناس عليها، وقد سمى سفيان الثوري إتيان الباطل تحت ذرائع وهمية بخديعة إبليس، وقد صدق رحمه الله تعالى.



ولهؤلاء حجج كثيرة أغلبها تقوّل عن أهل العلم تتعلق بالموازنة بين الحق والباطل، وأن تقليل الشر مطلب شرعي كما تحصيل المنفعة، ومما لا ريب فيه أن هذه القواعد –الموازنات– قواعد صحيحة في وضعها العلمي لكن على ذلك تنبيهات فيها:

١. أنه لغلبة الهوى هذه الأيام وقلة التقوى كما هو مشاهد فإن أي منفعة ولو كانت من باب الشهوة والتحسينات فإنها تضخم وتسبغ عليها كلمات الباطل وكأنها من ضرورات العامة والمسلمين من أجل تبريرها وإتيانها، وواقع الحال وقواعد العمل يشهدان أنها شهوة خاصة ولا زيادة.

٢. ومما يزيد الأمر خطورة أن الكثير من هذه المصالح الدنيوية تصادم حق الله تعالى وخاصة ما تعلق بتوحيد الله في شرعه وأمره، وأهل العلم مجمعون على أن حق الله تعالى مصلحة أعظم من كل المصالح، فضرورة الدين مقدمة على كل الضرورات الأخرى كالنفس والمال والعرض والعقل، ولكنك ترى هؤلاء يجيزون أعمالاً شركية وكفرية مقابل تحصيل مصالح دنيوية لا تصل لدرجة الضرورة، وهذا من باب الجهل والضلالة.

٣. أن دقة "فقه الموازنات" في أحيان كثيرة لا يهتدي إليه الفقيه الراسخ لدقته أو لتعقيد الواقع وعدم تبسيطه كما هو في واقعه العلمي، ومع ذلك فإن هؤلاء يفتون للعامة وللجهلة ويوسعون الباطل شبراً فيأخذه الجاهل ذراعاً، ويجعل كلام هذا المفتي جسراً له على جهنم، فمثل هذه المسائل لا يطلق فيها القول لتغير الظروف حين يتعلق الأمر مع أمور دقيقة في تقديرها وموازنتها.

٤. ومما يشهد لانحراف هذه الفتاوى التي تطلق للعموم من باب " الموازنات" إنما هي في أصل وضعها من قبل العلماء السابقين كانت لمن تعينت في حقه من العلماء والمقدمين وأهل الفنون والعقل والنظر، ولم توضع لعموم الناس فيأخذها "الرويبضة" ويزعمون أنها لهم وهم أحق بها فيفسدون أكثر مما يصلحون، بل لو تركوها لأهل الباطل لكانت منهم منفعة أكثر، فإن الواقع يشهد أن كثيراً من المنافع للمسلمين تحصل على يد أهل الباطل بأكثر مما يحصله الزاعمون إتيانها تديناً، فإن هؤلاء تصبح عندهم "موازنة جديدة" وهو البقاء في العمل مصلحة على أي مصلحة أخرى، فخوف ذهاب المنصب أو العمل يحكم ما يأتون ويذرون، فلا الباطل تركوا ولا مصالح المسلمين حصلوا، فعاد الأمر باطل لا خير فيه.

والمحترزات والتنبيهات على فقه "الموازنات" كثيرة، وكل يوم نشهد باطلاً ينتشر وحقاً يكتم ويُستر، يمارسه المفتون به دون فقه دقيق، ولا ورع يحميهم، وآخذون به والفون بلا إهتمام لإيمانهم وتقواهم.

فهذا الحديث عظيم في هذا الباب لمن ابتغى حفظ دينه وطلب الفضل والرفعة وتحصيل التقوى: فإما الحق كما أمر الله تعالى، والجهاد للباطل أعلاه وأرفعه وإما الاعتزال والهجرة، وهذا أسلم للمرء لدينه في الدنيا والآخره، وأما الزاعمون أنهم قادرون على السباحة في الوحل وعندهم من التقوى ما يحمي قلوبهم، ثم لم يكتفوا بالسباحة بل تضلعوا منه شبعاً ورياً فالله بصير بالقلوب وخطراتها، وهو أعلم بمن اتقى.



كل هذا يقع حين تكون الموازنة بين خير وشر يشتبه أمرهما لدقة مقاربتهما في الفكر والنظر، ولكن واقعنا يشهد أن القوم –مفتين وأتباع– تجرؤوا على الحرمات الصريحة بنصوصها، فالربا والخمر وقول الباطل ولبس الإثم كل هذا صار يحل بشبه واهية تحت باب التيسير ووجود الاختلاف فيها، والمقدم من المفتين من يبيح أكثر من غيره ويوسع للناس شهواتهم وأهواءهم، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وبهذا يعلم أن أعظم ما في هذا الحديث من فقه: أن الباطل إما أن يجاهد، وإما أن يعتزل، والحق أن الباطل لا يرضى بعزلتك، لأن إمامه هو الشيطان، وقد وطن نفسه أن يهلك ابن آدم بالمعاصي بتزيينها كما قال: (فبما أغويتني لأقعدنَ لهم صراطك المستقيم، ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين) بل سيشد على أذقانهم حبالاً ثقالاً ليجرهم إلى الباطل كما قال: (أرأيتك هذا الذي كرّمت علي لئن أخرّتن إلى يوم القيامة لأحتنكن ذريته إلا قليلاً) والباطل إن لم تشغله بالجهاد شغلك "بصوته ورَجِله وخيله"، ولذلك من أعظم طرق اتقاء الباطل هو مجاهدته.

وفي يومنا هذا يعد اعتزال الناس حتى لا تؤذيهم ويؤذونك ضرباً من العجائب، لأن جند الشيطان ألزموا الناس بكل قانون، ولاحقوهم حتى إنهم يدخلون معهم في أزواجهم وأموالهم (و شاركهم في الأموال والأولاد) فالجهاد هو السبيل الأقوم لتحقيق سعادة الدنيا ونعيم الآخرة.

وأما أجر الجهاد فهو في أبواب أخرى مذكورة في أبوابها، وأما ترك الشر والإساءة للناس فهي من أعظم الأعمال لمن عجز الصالحات العملية و(المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يكذبه ولا يحقره) و(كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه) ولعظمة حرمة المؤمن عند الله فإن النبي صلى الله عليه وسلم ذكر ذلك في آخر ما أوصى به أمته، في يوم الحج الأكبر، في حجة الوداع حين قال: (إن أموالكم ودماءكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا)، وقد أوصى النبي صلى الله عليه وسلم في أحاديث ترك إيذاء المسلمين لمن عجز عن الصالحات فإن ذلك صدقة.

ثم تأمل نور هذا الحديث في بيان المقابلة بين ما هو أعظم الأعمال إيجاباً وبين أعظم الأعمال سلباً، وبين إيذاء اعداءَ الله بالجهاد وترك إيذاءِ المسلمين بالعزلة نعلم أن هذا الكلام لا يخرج إلا من فم نبي مهدي مسدّد (و إنك لتهدي إلى صراط مستقيم).

وقد ورد لهذا الحديث ألفاظ منها قوله صلى الله عليه وسلم: (من خير معاش الناس لهم رجل ممسك عنان فرسه في سبيل الله، يطير على متنه، كلما سمع هيعة أو فزعة طار عليه، يبتغي القتل والموت مظانة، أو رجلٌ في غنيمة في رأس شَعْفَة من الشّعف أو بطن واد من هذه الأودية يقيم الصلاة ويؤتي الزكاة ويعبد ربه حتى يأتيه اليقين، ليس من الناس إلا في خير).





الحديث الرابع

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (تعس عبد الدينار وعبد الدرهم وعبد الخميصة، إن أعطي رضي وإن لم يعط سخط، تعس وانتكس، وإذا شيك فلا انتقش، طوبى لعبدٍ آخذ بعنان فرسه في سبيل الله أشعث رأسُهُ، مغبرةٍ قدماه، إن كان في الحراسة كان في الحراسة، وإن كان في الساقة كان في الساقة، إن استأذن لم يؤذن له، وإن شفع لم يشفع).

العبادة هي الخضوع والطاعة، فيقال: عَبَّدتُ الطريق، أي سهلتها للمسير عليها، وذلك بإزالة الموانع حتى تستجيب للسالك فكل من انقاد لشيء على جهة الحب والخوف استقلالا فهو عابد له، وضابطه هو ما ورد في هذا الحديث وهو قوله صلى الله عليه وسلم: (إن أعطي رضي، وإن لم يعط سخط) ذلك لأن نيته وهمته دون سواه، فهو عامل له، ساعٍ من أجله، فسعي المؤمن في صلاته وعبادته هو تحصيل رضى الله تعالى، فإن حصلها فهي غايته لا يطلب سواها، وإن فاتته الطاعة وهي سبب رضى الله تعالى حزن، ومن سعى لدرهم أو غيره في صلاته وعبادته كالجهاد ونشر العلم وغيرها فحصل مطلوبه رضيت نفسه وفرحت لما نالت من مطلوبها، وإن فاتها المطلوب حزنت وسخطت، فهذا هو الدليل على معبود الإنسان في عمله، وهو ضابط الرياء والإخلاص، وهو كما ترى تحقيق معنى العبادة لغوياً، لأن العبادة كما تعلم هي الخضوع والطاعة، وهذا الضابط المذكور هو المعنى الحقيقي للخضوع القلبي والطاعة الباطنة، فإن من خضع لشيء أحبه حتى صار مطلوبه وهمته، يرى كل شيء فيه، يسير وجهته ويطلب رضاه ويتبع أثره.

في هذا الحديث كذلك ضابط حقيقة الجهاد في الله تعالى دون سواه وهو قوله: (طوبى لعبد آخذ بعنان فرسه في سبيل الله)...إلخ الحديث المذكور، فإن حال المخلص لربه هو عدم الإنتصاب لغيره لا في زيه ولافي عمله ولافي حاله: أما الزي فهو في قوله: (أشعث رأسه، مغبرة قدماه) وذلك لالتهائه عن ذلك بما هو فيه من الإنغماس في الجهاد، فهو مستغرق فيه بكليته، لا يتطاول بشارة ليبصره الناس، وبِعَلَمٍ يعلم الناس مكانه وأفعاله، وقوله صلى الله عليه وسلم (أشعث رأسه، مغبرة قدماه) لا يعني أنه يتكلف ذلك ليكون كذلك، بل هو في حال لا تكون نتيجته إلا كذلك، ومن نافلة القول التنبيه أنّ تكلف ذلك ليس عبادة مطلوبة لله تعالى، بل تكلف ضدهما في حال لا يكون مشغولاً بطاعة الجهاد هو المطلوب الشرعي من التجمل والإغتسال عن الأدران وغيرها لأحاديث عدة ولقوله تعالى: (قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق) ومقصود هذا الوصف (أشعث... مغبرة...) إنما هو الانشغال التام بما هو فيه وذلك لإخلاصه، فلو كان غير ذلك لما أهمه في إحسان عمله بل رغبته



بتحسين صورته. وأما العمل فهو قوله صلى الله عليه وسلم: (إن كان في الحراسة كان في الحراسة، وإن كان في الساقة كان في الساقة) فهذا رجل لا يفاضل بين الأعمال بحسب قيمتها بين الناس إنما بحسب ما يطلب منه لأنه الأليق به فيما يرى له أميره، أو فيما يرى من نفسه، ومثل هذه الأعمال سمتها الخفاء وجفاء الناس عنها لمشقتها وعدم تنافس الناس فيها لعدم صيتها وقلة مرتبتها في الدنيا، وإن كان لا قِوامَ للجهاد إلا بهما، ولكن الناس يرون أن هذه الأعمال من مراتب الخدمة التي تهين صاحبها في دنياهم فيرغبون عنها في جهادهم، وشتان بين العمل حين يكون لدنيا وأجرة وحين يكون في سبيل الله، فهذا إبراهيم عليه السلام خليل الله، وابنه إسماعيل الصادق المرضي يكلفهما الله تعالى بخدمة بيته فيقول: (وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتي للطائفين والعاكفين والركع السجود)، وقال عن إبراهيم خاصة كما في سورة الحج: (وطهر بيتي للطائفين والقائمين).

وأجر الحراسة عظيم كما في الحديث: (عينان لا تمسهما النار، عين بكت من خشية الله، وعين باتت تحرس في سبيل الله)، وخدمة العابدين كانت قريش تتنافسها وراثة من أبيهم إبراهيم عليه السلام، فالسقاية أحد الألوية التي كانوا يتنافسونها مع الرفادة وهي إطعام الحجيج. وقد رغب النبي صلى الله عليه وسلم أن ينـزل مع السقاة للحجيج ولكن تركه مخافة أن ينازع الناس أهله وظنهم أن هذا جائز لهم –أي منازعة أهله– وقال للسقاة: (أكملوا فإنكم على عمل صالح) ثم قال: (لولا تغلبوا لنـزلت حتى أضع الحبل على هذه) وأشار على عاتقه صلى الله عليه وسلم، مع أن السقاية كانت لعمه العباس رضي الله عنه، فالمقصود أن المخلص لربه في جهاده لا يتشوق إلا إلى رضاه، فهو غافل عن حظ نفسه، ولو أرادها لما اختار إلا الأعمال التي فيها الحظوظ لها، وأمره ليس كذلك. وأما في حاله فهو قوله: (إن استأذن لم يؤذن له، وإن شفع لم يشفع) ذلك لأنه خفي عن الناس بما هو فيه من إعمار الباطن، فالناس لا يعرفونه لعدم اشتهار اسمه أو نسبه أو أفعاله، والحق أن أهل الإيمان والتقوى لا يخفى عليهم حال هؤلاء، بل يعرفوهم وقد يطلبوهم كما كان يفعل عمر بن الخطاب رضي الله عنه كما قال: (لو كان سالم مولى حذيفة حياً لوليته) وعمر كان خبيراً بالرجال ومع ذلك قال: (رحم الله أبا بكر كان أعلم مني بالرجال) والبعض كان يتركهم لما هم فيه من الرغبة في الاختفاء، والمقصود أن هذا الإخلاص لا يغيره ما يقوله الناس عنه، ولو كان مقصوده غير الله لسخط كما يسخط غيره، كما قال تعالى: (ومنهم من يلمزك بالصدقات فإن أعطوا منها رضوا وإن لم يعطوا منها إذا هم يسخطون)، وحين ترى اليوم بعضهم وهو يعدد فعاله وتاريخه ليدلل على أن له شأناً لم يقم به الناس له، ولم يقابلوه بمثله، فيجعل ذلك سبباً للسخط والغضب وترك العمل الصالح، فيقول أحدهم: (لقد تكلمت كلمة الحق وعذبت في سبيلها ولم أجد أحداً ينتصر لي أو لم يأبه لي أحد، فهؤلاء قوم لا يستحقون أن يقدم لهم شيء) ولو تفكر هذا القائل بهذه المقالة الخبيثة لعلم أن عمله قد حبط بسببها، ولو راجع تاريخ العاملين لدين الله تعالى لعلم أن هذه سيرة مضطردة، فأنصار رسول الله صلى الله عليه وسلم ورضي الله عنهم قدّموا كل شيء، المال والروح والولد، ولم يجدوا ما يقابل ذلك شيئاً من الدنيا، بل



أخبرهم رسولنا صلى الله عليه وسلم أنهم سيجدون بعده أثرة فأمرهم بالصبر وقد فعلوا فرضي الله عنهم وأرضاهم، وقد رأوا المال العظيم يقسم أمام أعين لمن قاتلوهم وذلك في حنين، فوجدوا في أنفسهم بعض شكوى فلما هبت ريح الإيمان بموعظة رسول الله: (أما ترضون أن يرجع الناس بالشاة والبعير وترجعون برسول الله إلى رحالكم) حتى بكت عيونهم فرحاً بما رجعوا به، وقالوا: (رضينا). بل هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يطلب من أمته شيئاً لنفسه في هذه الدنيا سوى مودة أهل بيته فقال سبحانه: (قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى) ومع ذلك قتل الناس أحب أهل بيته إليه الحسين بن علي رضي الله عنهما، وما رعوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم حرمة، وهؤلاء كبار الصحابة كسعد بن أبي وقاص يتنازع الناس الخلافة وهو مشغول عنهم ببناء حوض ماءٍ لإبله، والذين يتنازعونها ما أسلموا إلا بيده وأيدي أمثاله، وهذه الخلافة قد آلت إلى من قوتلوا على الإسلام، ومن قاتلهم عليه حاضر يرى كما قال ابن عمر فصبروا وتذكروا ما أعد الله من النعيم في الجنة فسكنت نفوسهم، فهذه سيرة مضطردة تكشف مخبوء النفوس ونيتها في عملها وجهادها.

وهكذا المقابلة بين الحالين: حال من سخط لذهاب بغيته ورضاه إن حصلها، وحال من عمل من أجل الآخرة فهي همته ورغبته لا يعيضه شيئ عنها، لا يهمه إن فات ما فات و لم تفت هي، وطوبى: من الطيب لغةً، قلبت الياء واواً، وفي الحديث هي شجرة في الجنة.

وفي الحديث من الفوائد: أن مقامات الآخرة والفضل الإلهي ليس بحسب مقامات الناس بينهم في المناصب والأموال، بل إن المترفين هم أكثر الناس صدوداً عن الذكر كما قال تعالى: (وما أرسلنا في قرية من نذير إلا قال مترفوها: إنا بما أرسلتم به كافرون، وقالوا نحن أكثر أموالاً وأولاداً وما نحن بمعذبين، وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقربكم عندنا زلفى إلا من آمن وعمل صالحاً فأولئك لهم جزاء الضعف بما صبروا وهم في الغرفات آمنون) وفي القرآن ربط دائم بين العلو والفساد كما قال عن بني إسرائيل: (لتفسدن في الأرض ولتعلنّ علواً كبيرا) وكما قال عن فرعون: (وإن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعاً) وقد وعد الله وراثة الأرض للذين (لا يريدون علواً في الأرض ولا فسادا) والجهاد والبلاء لا يستقيم إلا لأهل الصبر والإحتساب، وقد كشف الله المنافقين بالجهاد كما في سورة التوبة، تلك السورة التي سميت بالفاضحة لأنها فضحت المنافقين، وغالب ما فيها من صفات فاضحة لهم إنما كشفت بالجهاد فهم الذين: (لو كان عرضاً قريباً أو سفراً قاصداً لاتبعوك ولكن بعدت عليهم الشقة، وسيحلفون بالله لو استطعنا لخرجنا معكم يهلكون أنفسهم والله يعلم إنهم لكاذبون) وهم (و لوا أرادوا الخروج لأعدوا له عدة ولكن كره الله انبعاثهم فثبطهم وقيل اقعدوا مع القاعدين، ولو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالاً ولأوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة) وهم (ومنهم من يقول ائذن لي ولا تفتنّي) وهم الذين (فرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله وقالوا لا تنفروا في الحر) وهم (و إذا أنزلت سورة أن آمنوا بالله وجاهدوا مع رسوله



استأذنك أولوا الطول منهم وقالوا ذرنا نكن مع القاعدين، رضوا بأن يكونوا مع الخوالف وطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون)... وغيرها، وهذا يدل على قوة هذا الضابط في التفريق بين الصادق والمرائي، بين المؤمن والمنافق وفي الحديث: (من مات ولم يغز ولم يحدث به نفسه مات على شعبة من النفاق) وهو تفسير لهذه الآيات ولا شك.

قوله صلى الله عليه وسلم: (تعس وانتكس) هو شأن من عمل لغير الله لا يدوم أمره ولا يصبر، بل ينقلب حيث لم يصب مراده من الدنيا، وهو وإن كان دعاءً من رسول الله صلى الله عليه وسلم عليه، فهو كونه وقدره، صفة لازمة لمن لا يريد وجه الله تعالى كما قال تعالى: (ومنهم من يعبد الله على حرف فإن أصابه خير اطمأن به وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة وذلك هو الخسران المبين)، وقوله: (وإذا شيك فلا انتقش) فهو دعاء عليه أن لا يصيب مراده بانتكاسته، فإن هذا يرتد وينقلب على عقبه رجاء جبر دنياه الذاهبة بسبب البلاء، فرسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو عليه أن لايلتئم له شأنه ولا يعود له ما رجاه حتى لو كان مجرد زوال شوكة عنه. أما قوله (تعس) فهو دعاء وحقيقة كونية، فإن من تشتت همّه إلى مطالب عدة تنقلت به أمواله وأتعبته سبلها، كلما أراد شيئاً وجده سراباً لا غناء فيه ولا كفاية، ومن جعل الله قصده وغايته ونيته فهو كافيه لأنه نعم الوكيل (أليس الله بكاف عبده).

وفي الحديث فائدة جليلة أن العبادة ليست في أعمال النسك فقط كالصلاة والسجود والدعاء بل هي أشمل من ذلك وأعم، وهذا ما لا يعرفه إلا أهل الإسلام من معنى العبادة، بل لا يعرفه إلا العالمون بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فالحمد لله على تعليم رسول الله صلى الله عليه وسلم لأمته هذا الفضل والكرم.





الحديث الخامس

عن ابن عمر رضي الله عنه قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: (ألا كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته، فالأمير الذي على الناس راع وهو مسؤول عن رعيته، والرجل راعٍ على أهل بيته وهو مسؤول عنهم، والمرأة راعية على بيت بعلها وولده وهي مسؤولة عنهم، والعبد راع على مال سيده وهو مسؤول عنه، ألا فكلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته).

هذا دين حق وخير، من أين أتيته وجدته هدى ونوراً، وما أفسد الأمة إلا الأهواء وآراء الباطل التي تحملتها من غير سبيل القرآن والسنة، فهذا الحديث هو باب حقيقة الفاعلية التي يسعى إليها العقلاء لأمتهم فإن فساد الأمم وشعوبها في إلقاء التكاليف والكسل والعجز، والإنكفاء على الذات، وأن حياة الأمم والشعوب في فهم وتحمل المسؤولية، بحيث يرى كل واحد أنه المعنيُّ بالخطاب وأن الأمر له دون بقية أهله، محتقب بالإثم إن فرط فيه أو قصّر عنه، وما حقق الأولون من أعمال عظيمة كانت لها الفرادة في تاريخ البشرية، والصدارة في إنجازات الأمم إلا لهذه العقائد والمفاهيم، وحين دخل النسك العجمي والتعبد الجاهلي على أمتنا وانسحب الناس عن مسؤولياتهم عاد الجَمْرُ حطباً بارداً ورفاتاً هيناً، وحين يحس المرء بأهميته لأمته وأهميةِ أمته له تكتمل دورة الحياة وتحصل المنجزات، أما حين تموت هذه الصلة بين الفرد والأمة، فلا يرى لنفسه شأناً معها ولها، ولا يرى لأمته قيمة فحينها يكون الموت الحقيقي لكل المشاريع التي هي حقيقة حياة الأمم ومقاصدها.

المسؤولية، والفعالية، وصيغة العلاقة بين الأمة وحقيقة الروابط، وتوزيع التكاليف، ومصدر الحق وطبيعته، هذه أسئلة أعيت الأمم وأتعبت عقلاءهم، وسُكب من أجلها آلاف المحابر، وتناطح فيها دعاة الإصلاح، لأنها إن أدركت وخضع الناس لها بتراضٍ ورغبة باطنية تحقق المراد من الفرد باعتباره مستقل الإرادة محترم الاعتبار، وتحقق المراد من الإجتماع بتسمية المجموع أمة تتحقق لها أهدافها ويحصل لها مقصودها، بلا تعارض بين الفرد والأمة، وبلا تفريط في الحقوق، وبلا ضياعٍ للأهداف.

هذا الحديث لوحده كافٍ للإجابة على هذه الأسئلة الأرضية الحائرة، وبكلمات نبوية صادقة حَمَّل الكلَّ التكليف، وأخضع الجميع للواجب، وفرض على الكل الطاعة، وفسَّر مصدر الحق ومنبع قوته.

إن الحياة لا تستقيم إلا بتنظيم، وهذا التنظيم في ظاهرة يوزع الأمة إلى دوائر، وللوهلة الأولى يحصل الوهم أن هذه الدوائر والمؤسسات هو تفرق وتنازع، كما يحصل الوهم أن هذا التوزع يلغي العلاقة بين أفراد هذه المؤسسات وبين الآخرين من هذه الأمة، فحين يكلف الشرع الحاكم القيام بالجهاد مثلا فيُظنَّ أن الجهاد هو تكليف لمؤسسة ولدائرة من الأمة هو الدولة وبقية الأمة غير معنية به، ومثل ذلك الحدود، أو حين تنشأ مؤسسة



ودائرة للعلماء فينشأ الوهم أن العلم مسؤولية لهذه المؤسسة دون سواها، وبقية الأمة غير مكلفة بهذا الواجب وهذه هي البدعة الكبرى التي تصيب الأمم وتدمرها، وإذا كان للعابدين بدع تفسد عبادتهم، وإذا كان للعلماء بدع تفسد عملهم فإن للأمم بدع تفسد فاعليتها وأهدافها كلها تدور حول المسؤولية.

الغاية المثلى هي خضوع الأمة للمفاهيم، بحيث تكون السلطة لها، فتكون هذه المفاهيم أعرافاً في حس الناس ومشاعرهم وفي القانون الغالب، يخضع له الناس ويتداولونه كما يتداولون لغتهم، وكما يتداولون مفاهيمهم الفطرية كالعلاقة بين الأب وأبنائه والأم وأبنائها، وكلما رقت المفاهيم الشرعية وخضع الناس لها ببواطنهم كلما اقتربت المفاهيم من كونها فطرة وسجية، ولما كان الإسلام هو الحق وهو الفطرة فإن الأليق به في صورة المثال هو تحققه خلال قانون الفطرة والعرف الباطني، فيستسلم له الناس بلا توزيع ولا تقسيم ولا تقنين لكل فئة دون بقية الأمة، ومن أمثلة ذلك "المؤسسة العلمية"، فهذه في صورتها الصحيحة الأولى كانت موجودة، لها سلطانها، وقوانينها، وضوابطها، وحدودها، وكل ذلك مثبوت في حسّ الأمة ومشاعرها ووجدانها، وهذا الوجود الكامن في داخل الأمة له قوة آسرة، ووضوح بيّن أقوى من أي سلطة مقننة ومُعْلَنٍ عنها ككيان، ولم يكن هذا الوجود يحتاج إلى فرضهِ بقانون يعزله ويفصله عن بقية نشاطات الأمة، فالمسجد بنايته، مفتوحة أبوابه للجميع، وحلقات العلم جزء من نسيج هذا الجميع، فلا طبقية ولا عزل أو استئثار، ولو قارنت هذه "المؤسسة العلمية" في تاريخنا مع أي مؤسسة أخرى في تاريخ الأمم الأخرى كالنشاطات النقابية لوجدت أن الفارق كبير، حيث تتحول "المؤسسة النقابية" إلى عصابة وحزب له رجاله الذين يجعلون "الشخص" أو "العائلة" هو الأصل و"التنظيم" وسيلة للذات لا الفكرة، ولذلك عمدت "الدولة" في تاريخ الأمم دائماً إلى ابتلاع هذه المؤسسات وجعلها قوة لتوحشها ضد فكرة المؤسسة نفسها، فأنشأت ما يسمى بمنصب المفتي العام، أو "هيئة العلماء" وجعلتها مربوطة بنظام "الدولة" وجزءاً منها، وبالتالي تحولت المؤسسة إلى ناب لوحش الدولة تبطش به ضد خصومها، فالمسجد للدولة كما هي حال أي دائرة حكومية، وبالتالي صار العلم نشاط "مؤسسة حكومية" لا حركة أمة ومن ذلك "مؤسسة الجهاد" فالجهاد أمر رباني للمسلمين جميعاً بلا استثناء، حتى العجزة لهم وجود في هذا النشاط الإنساني الإسلامي العظيم، فهو حركة أمة، وليس نشاط دائرة معيّنة به دون غيرها، وكلما كان هذا المفهوم معمماً كلما كانت فاعليته أقوى، وكلما اقترب من تحجيم المؤسسة والتقنين كلما فُقدَت هذه الفاعلية، وذلك لخروج طوائف من المسؤولية، فتعميم المسؤولية هو تحقيق للفاعلية، وتحديد "المؤسسة" هو قصم لهذه المسؤولية وبالتالي إبطال لقوة الفاعلية، فَفَرْق أن يكون الجهاد هو حركة أمة كما كان في صورته الأولى، وبين أن يصبح نشاط "مؤسسة حكومية" فيها أراضها.

وهذا لا يلغي مفهوم التنظيم والإدارة، فنظام الدواوين ليس هو "المؤسسة" التي تعزل البعض عن الكل وبالتالي يسهل ابتلاعه من قِبَلِ "الدولة" على حساب "الأمة"، بل هو تنظيم لفعل أمة، وليس صناعة "لمؤسسة" محددة.



النشاطات يجب أن تكون تكاليف أمة، وذلك من خلال المفاهيم المسيطرة في المجتمع، وانتقالها إلى تكاليف "مؤسسة" يجعلها محتاجة لتقنين وبالتالي يقع العزل وتدمير الفاعلية، وسهولة قنصها واختطافها لخدمة "الشخص" أو "الدولة" لا الفكرة التي انتصبت من أجلها.

في القرآن الكريم والسنة النبوية تكاليف موجهة للأمة، وإذا وجدت أوامر للبعض فهو لاختصاص هذا البعض بالقدرة اللازمة لهذا التكليف، فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مكلف به كل من رآه (من رأى منكم...) والحكم بما أنزل الله تكليف لأمة (و ليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه)، وهكذا جميع النشاطات بلا استثناء، وتكليف الحاكم بإقامة الحدود وإعلان الجهاد هو من قبيل الوكالة عن الأمة، فهو وكيل بعقد بينه وبين الأمة لإقامة أحكام العامة، وسلطانه يستمد من هذا العقد، وقوة هذا السلطان مصدره رضا الأمة، فليست السلطة توكيل إلهي ولا الغلبة والقهر، وإن كان أمر الأمة يعرف بقوة الشوكة والتي تظهر عن طريق الغلبة أحياناً. والعقد طرفاه الأمة من جهة والحاكم من جهة أخرى، والمعقود عليه هو احكام العامة، ويبطل العقد بأمور تصيب العاقدين ككفر الحاكم أو جنونه أو بتخلف مقاصد العقد وهي المعقود عليه كتعطيل الحدود وإبطال الجهاد، وحين يبطلها الحاكم يعود أمرها إلى الأمة ولا تسقط عنها، فالجهاد لا يبطله حاكم، وإن عطله وجب على الأمة أن تقوم به وكذلك الحدود وغيرها.

وهذا الوصف الذي قدمناه يفيد أن دائرة الدولة ضيقة جداً، وهكذا يجب أن تكون، أما ربط التكاليف بالدولة والحاكم وتوسيع ذلك فهو انحراف وبدعة، ومن العجيب أن يوجد بعض الفقهاء من وقع من فتاوى تؤيد هذه البدعة وتنصرها، وذلك مثل ربط الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بإذن الحاكم أو إقامة الجمعة، بل وصل بعض هذه الأقوال الغريبة إلى دعاء القنوت في النوازل لأمر الحاكم وإذنه، وهذا لعمر الحق إنحراف في تصور حقيقة الأمر الشرعي، وأثره السيّء على الأمة أقوى من أثر البدع الفردية والسلوكية الشخصية. وكما رفع الله بعضاً فوق بعض درجات، كذلك جعل الناس أقساماً من ذكر وأنثى، وأب وأم، وسيد وعبد، وخادم وآمر، وبائع ومشتري، وهكذا تقع نشاطات الحياة باعتبار أمرها القدري الذي فطر الله الخلق عليه، وهذا الأمر الفطري يجب اتباعه والإقرار به، وهو كذلك في حس الناس ووجداهم إلا ما يقع من إبليس وجنده من (فليغيرن خلق الله)، وبالتالي يؤمر الإبن أن لا يقرّ أباه على طاعة، ولا الزوجة لزوجها، ولا الصغير لكبير وذلك تحت شعارات بهيمية معروفة.

هذا التوزيع الفطري مع الحكم الشرعي هو الذي يحقق الفاعلية الحقيقية للأمم ويديمها، وكلما حصل فساد في أحدهما تعوقت الأمم وسارع فيها الفساد وبالتالي حقت كلمة الله بالعذاب والإهلاك والدمار، وهذا التوزيع هو مصدر من مصادر المسؤولية والتكليف، خلقه الله وأقره شرعه، وهو عقد فطري، والفطرة هي أقوى أدلة الشرائع والأحكام بلا خلاف بين عقلاء البشر.

هذا الحديث يحمّل المسؤولية لكل من كلف رعاية حق، فالرعاية تعطى في بعض جوانبها مفهوم التقدم على الغير، فتُنشِئ وَهمَ الطاعة دون السؤال والمراجعة، ومع التقادم وضياع البعد الأخلاقي يحصل الاستعلاء وهي أسُّ الفساد والخراب كما هو في كتاب الله تعالى، فحين تحصل الإمارة مع فقدان مفهوم المساءلة والمراجعة لا يبقى من الإمارة إلا مفهوم الطاعة، أي طاعة المأمور وخضوعه للأمير، والمفاهيم الباطلة تنتج الإنحراف السلوكي، وأعظم ما يصيب البشر هو الطغيان الذي أساسه الكبر، وفي الحديث: (**سبحانك يا ذا الجبروت والملكوت والكبرياء والعظمة**) وهذه هي التي نازعَه سبحانَه الخلقُ فيها، وهي أساس كل فساد في الدنيا والآخرة.

المفهوم الشرعي للملك هو رعايته، أي قيام بأداء الواجبات والحقوق، ومساءلة في الدنيا والآخرة، كما هي في حس الناس طاعة وامتثال، مع أن القاعدة الفقهية المقررة: **الواجبات قبل الحقوق.**

وفي الحديث إطلاق لمفهوم المسؤولية وبالتالي لا يجوز قصرها على الإثم الآخروي، بل هي كذلك في الدنيا، وهذا الذي طبقه الجيل الأول وأتمروا به كما قال الصديق: (**أطيعوني ما أطعت الله فيكم، فإن عصيته فلا طاعة لي عليكم**) وهذه الكلمات ليست مواعظ إرشادية بل هي دستور وعقد ملزم للطرفين، وحين جاع الموالي عام الرمادة وسرقوا من مال سيدهم لم يقتص منهم عمر رضي الله عنه لأنهم أخذوا ما هو حق لهم من مال سيدهم الذي منعهم إياه، وحين استفتت هند بنت عتبة رسول الله صلى الله عليه وسلم هل تأخذ من مال زوجها الذي منعها لشحٍّ منه أجاز لها رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال: (**خذي ما يكفيك وولدَك بالمعروف**) وهذا الحديث أصل في مسألة "استيفاء الحقوق بغير إذن صاحبها إن جحدها أو منعها"، فما قررت الفطرة والشرع من حقوق فالمساءلة حق لا يجوز لأحد أن يعطلها.

فمن الواجبات الملقاة على أمتنا ولا سعادة إلا بها، وهي باب فاعلية الأمة بين الأمم، كما هي أساس نقاء الأمة وبراءتها من الفساد الداخلي: " **إقامة الحدود والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ومن ذلك الحسبة والجهاد في سبيل الله** " وهذه هي خصائص هذه الأمة التي تجعل لها حق قيادة الغير، والنصوص الدالة على ذلك كثيرة تراجع في مظانها، وهذه يجب عل الأمة القيام بها، توكل غيرها من الأمراء وغيرهم لمباشرتها، فإن قصّرت فيها أو عطلها الوكلاء أثمت الأمة جميعاً، ولا يسقط الإثم عن الواحد إلا بالأداء بحسب الوسع والاستطاعة.





الحديث السادس

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: (ما من الأنبياء نبيّ إلا أُعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنّما كان الذي أوتيته وحياً أوصاه الله إليّ، فأرجوا أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة).

كان من حجج الكافرين على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم من أجل تصديقه واتباعه أن يأتيهم بآية كونية كما أرسل مع النبيين السابقين، وقد ذكر الله تعالى هذا الأمر كثيراً في القرآن مما يسترعي الانتباه فقد ذكره في سورة الأنعام ويونس وطه والأنبياء وأشار إلى ذلك في مواطن أخرى كما في الأعراف والنحل والقصص، ومما ذكره الله تعالى في هذه المواطن أن هذه الآيات لم تكن سبباً لإيمانهم وتصديقهم، بل كان إرسالها سبباً في تعجيل العذاب كما قال تعالى في سورة الإسراء: (وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذّب بها الأولون) وقال في الأنبياء: (ما آمنت قبلهم من قرية أهلكناها أفهم يؤمنون) وقال في القصص: (فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا لولا أوتي مثل ما أوتي موسى، أولم يكفروا بما أوتي موسى من قبل، قالوا سحران تظاهرا وإنا بكل كافرون) و لم يقع خلاف ذلك إلا مع قوم يونس عليه السلام كما قال تعالى: (إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون، ولو جاءهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم، فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين)، والقرآن كشف بهذا كذب هذه الحجج وتعنّت طالبيها، وأن مرادهم هو المجادلة بالباطل والتعجيز، ولذلك توقفت هذه الآيات الكونية و لم تعد هي السبيل للحجة مع الحق، فقال تعالى في سورة طه: (و قالوا لولا يأتينا بآية من ربه أولم تأتهم بينة ما في الصحف الأولى) والآية تحتمل معنيين، أولاهما: أن الذكر في القرآن هي ما جاءت به الصحف الأولى فدل هذا على صدق القرآن ويشهد لهذا المعنى ما قال الله تعالى في سورة الأنبياء من قوله: (بل قالوا أضغاث أحلام بل افتراه بل هو شاعر فليأتنا بآية كما أرسل الأولون) إلى قوله: (لقد أنزلنا إليكم كتاباً فيه ذكركم أفلا تعقلون)، والثاني: أن ما جاء من الآيات الكونية في الصحف الأولى وأنه لم يحقق الإيمان في قلوبهم كاف أن لا يرسلها الله مرة أخرى، وفي سورة القصص قال تعالى: (و لقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الأولى بصائر للناس وهدى ورحمة لعلهم يتذكرون) وهو يشهد لهذا المعنى، وهذه الآية في سورة القصص تبين أن إهلاك أمة كاملة بسبب تعنتها قد توقف، وإن كان إهلاك القرى بإزالة قوتها وعلوها لم يتوقف كما قال تعالى في سورة الإسراء: (و إن من قرية إلا نحن مهلكوها قبل يوم القيامة أو معذبوها عذاباً شديداً كان ذلك في الكتاب مسطورا)، والمقصود أن الآيات الكونية الكبرى للشهادة على صدق الأنبياء والتي يتعلق بها الدمار إن كفروا بها و لم يصدقوها قد



توقف، وكل من طلبها فهو متعنت كشف الله كذب سلفه قال تعالى: (و قال الذين لا يعلمون لو لا يكلمنا الله أو تأتينا آية كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم تشابهت قلوبهم قد بيّنا الآيات لقوم يوقنون، إنا أرسلناك بالحق بشيراً ونذيراً ولا تسأل عن أصحاب الجحيم)، والحجة الكبرى التي جعلها الله تعالى لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم وهي حجة الدعاة والمجاهدين والعلماء إنما هي كتاب الله تعالى وما فيه من الآيات لا غير، فمن سأل دليلاً آخر على صدق أيّ مسألة فهو متعنت مجادل بالباطل لا غير، والقرآن هو الحجة وهو الهداية، وقد ربط الصحابة هداية رسول الله صلى الله عليه وسلم بسبب أخذه بالكتاب فقد قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه في خطبة البيعة كما في الصحيح: " أما بعد فاختار الله لرسوله صلى الله عليه وسلم الذي عنده على الذي عندكم، وهذا الكتاب الذي هدى الله به رسولكم، فخذوا به تهتدوا، ولما هدى الله به رسوله". هذا الحديث يدل على أن الله أعطى كل نبي آية وفيها الكفاية لإثبات صدق النبوة، وفي المعجزات الباهرة والتي لا يقدر على مثلها البشر، وفيها البصيرة التامة كما قال موسى عليه السلام لفرعون: (لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السموات والأرض بصائر) والضمير يعود إلى الآية السابقة وهي قوله: (و لقد آتينا موسى تسع آيات بينات). وفي سورة الأعراف ذكر الله نوعين من البينات لإقامة الحجة: أولاهما: البينة القدرية الكونية كما قال عن قوم ثمود: (و إلى ثمود أخاهم صالحاً قال يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره، قد جاءتكم بينة من ربّكم، هذه ناقة الله لكم آية) وكذلك ما قاله موسى عليه السلام عندما طلبوا منه آية فقال فرعون: (إن كنت جئت بآية فأت بها إن كنت من الصادقين)، والثانية: هي البينة الشرعية كما ذكر عن شعيب عليه السلام: (وإلى مدين أخاهم شعيباً قال يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره، قد جاءتكم بيّنة من ربّكم فأوفوا الكيل والميزان ولا تبخسوا النّاس أشياءهم ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها ذلكم خير لكم إن كنتم مؤمنين).

وأما المعجزة الكبرى التي جاء بها رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم فهي القرآن الكريم: (وإنّما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إليّ) وليس الحديث معناه أنه لم يكن له معجزات كونية تدل على صدقه كانشقاق القمر وخروج الماء من بين أصابعه الشريفة وتكثير الطعام وتسليم الحجر عليه وغيرها مما هو مذكور في سيرته بأسانيد صحيحة وإنما المقصود أن الآية الكبرى هي القرآن، و لم تكن تلك الآيات الكونية مما تعلق بها الدمار والهلاك كآيات الأنبياء الآخرين عليهم الصلاة والتسليم، وهذا الذي جاء به رسولنا صلى الله عليه وسلم هو ميراثه لنا، لا نحتج إلا به في جهادنا ودعوتنا وإثبات الحقائق الشرعية، فالحق لا يثبت إلا بالشرع وهو الكتاب وما دل عليه الكتاب كالسنة الشريفة كقوله تعالى: (و ما أتاكم الرّسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا)، وإنْ أكرم الله العاملين بكرامة كونية فهي زيادة رحمة لحصول الاطمئنان كما طلب إبراهيم عليه السلام في قوله: (ربّ أرني كيف تحيي الموتى قال: أولم تؤمن، قال: بلى ولكن ليطمئن قلبي) وقد قال رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم: (نحن أحقّ بالشّك من إبراهيم) أي في طلب الطمأنينة، وهي أمر زائد عن الإيمان واليقين، والمؤمنون في طلبها



ليسوا متجاوزين حد الشرع والعبودية، وأما ما يبطله البعض من الآيات الكونية لإثبات صدق ما يقوم به المجاهدون والدعاة فهو طلب تعنّت لا التفات إليه، ومن ذلك أن ينصر الله طائفة علم وجهاد، وأن لا يحصل لهم الهزيمة أبداً أو الهلكة الكلية لهم، فليس هناك اليوم طائفة يقال فيها: (اللهم إن تهلك هذه العصابة فلن تعبد في الأرض) لأن الإسلام وأهله في كل مكان، وطوائف العلم والجهاد متوزعون في الأمصار، إن هلكت طائفة لسنة الله في الحياة لعدم القدرة أو كفاية هذه القدرة فهناك طوائف أخرى تبقى بفضل الله، وما يحصل من الشك والريب في قلوب البعض إن هلكت عصابة حق، فيقال لو كانت على الحق لنصرها الله تعالى هو من قبيل الجهل بسنة الله تعالى في التعامل مع الحق، فأهل الأخدود أبيدوا جميعاً، والله جعل النصر هو الثبات على الإيمان فقال: (وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين)، وليس هناك من وعد إلهي أن كل من ثبت على الحق أن ينصره على خصمه بنصر مادي على ما يفهم الناس، فهذا عليّ رضي الله عنه كان على الحق ضد معاوية رضي الله عنه في قتاله و لم ينتصف منهم لعوامل سننية لا تتبدل ولا تتحول، وكم قُتل من عالم أمام طاغية كسعيد بن جبير أمام الحجاج وأهل الدرعية أمام إبراهيم بن محمد علي باشا الألباني، والأمثلة تملأ مجلدات في هذا الباب، والمقصود أننا حين نقول: إن الله معنا لأننا على الحق، فالله سبحانه وتعالى يفعل ما يشاء ويختار لأسباب كونية وشرعية لا تتبدل، والله لا يُكرهه أحد ولا يوجب عليه موجب، وما نحن إلا عبيده نؤمن بما جاء به رسوله صلى الله عليه وسلم ونتوكل عليه، ثم نرضى بما يقع علينا من أقدار الله تعالى ونصبر عليها، وها هو ربنا يحذر رسولنا صلى الله عليه وسلم من هذه الشُّبَه الشيطانية التي يلقيها أتباعه فيقول: (فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك وضائق به صدرك أن يقولوا لولا أنزل عليه كنز أو جاء معه ملك، إنما أنت نذير والله على كل شيئ وكيل).

إن ثبت الفعل بالدليل، فأنت على الحق إن انتصرت مادياً، وأنت على الحق إن هزمت مادياً، وأنت على الحق إن استجاب الله دعاءك، وأنت على الحق إن أجّل الله إجابته، وأنت على الحق وإن مشى خصمك على الماء أو طار في الهواء، فإن طلبت آية أو علامة على صدق ما أنت عليه لِبرد الاطمئنان لا لدليل تحتج به لم تعد أن تكون مقتدياً بإبراهيم عليه السلام، والله تعالى له الأمر من قبل ومن بعد.

ثُمّ اعلم أن الاستقامة هي أكبر كرامة، والثبات هو دليل الصدق، ويشهد لهذا قوله صلى الله عليه وسلم: (فأرجوا أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة) فكم دخل أفراد وطوائف في دين الله تعالى لما رأوا ثبات أهل هذا الدين عليه وثقتهم به، وإن برد اليقين مع الضعف لهو أعجوبة هذه الحياة، وإنه بحمد الله تعالى ما نراه اليوم مع طوائف الجهاد هذه الايام فالحمد لله على نعمه وكرامته.

وفي الحديث مسألة: أن القرآن فيه آيات بيّنات لكل عصر ومكان، ولذلك فالحديث حجة للعلماء والدعاة الذين يستنبطون منه البراهين العلمية والكونية والجغرافية والتاريخية والطبية والعددية وغيرها مما هو عمل بعض العلماء اليوم، فهؤلاء على ثغرة من ثغور هذا الدين بشرط العلم وعدم التكلف فجزاهم الله خيراً، وقد كان في ما



قالوه حجة على كثير ممن سمع منهم فآمنوا وصدقوا هذا الدين واتبعوا الكتاب، والإنكار على أصل هـــذا العلـــم جهل وأما الإنكار على المتكلفين والمتكلمين بالخرص والظن فهو حق ودين.





الحديث السابع

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (سباب المسلم فسوق وقتاله كفر).

البناء لا تستقيم منفعته لغيره حتى يستقيم في داخله، وفي المرء طاقات إن صرفها عن الحق صُرِفت إلى الباطل، وإن أعظم ما يحقق القوة بين الأمم والجماعات هو الإتحاد والذي لا يكون إلا بالحب والإحترام، والشيطان إن يأس من أن يُعبد غير الله تعالى فإنه لا ييأس أن يقطع أواصر الحب والود بين العابدين لربهم كما في الحديث الصحيح، فما من طريق أفضل لتحقيق مراد المؤمنين أفضل من أن تتكامل قواهم الإيمانية ليكونوا يداً واحدة على الحق، لأن الإيمان لا تظهر آثاره في هذه الدنيا إلا بالإجتماع والوحدة، فقد ينجو المؤمن يوم القيامة بإيمانه الفردي، لكن لا يتحقق للإيمان أثره في الأرض إلا بالكثرة والتي لا تكون إلا بالوحدة والإجتماع، وإن من أعظم ما يجب أن يعلم أن "التفرد" عن الجماعة هو من الكبائر، وهذا من الفقه المنسي هذه الأيام فإن النبي صلى الله عليه وسلم عد من الكبائر: (التعرب بعد الهجرة) والتعرب هو العيش على صيغة الأعراب بلا اجتماع ومدنيّة، وفي هذا الحديث أن العمران والتمدن من الإيمان وضدها من الكبائر والإثم العظيم، وعلى الدوام كانت الأطراف البعيدة عن حواضر الإسلام من البوادي والقرى النائية مصدر جهل وغفلة ثم كانت يد شر مع أعداء المسلمين ضد الإسلام وأهله، وقد ذكر أهل العلم أن من أعظم ما كان سبباً لجهل الخوارج هو تفردهم في البوادي وتركهم حواضر الإسلام واجتماعَهم، وقد رأينا في تاريخنا المعاصر أن "الأعراب " هم من أطاح بدولة الخلافة عندما صاروا جنود كفر مع الإنجليز، وهم اليوم جنود كفر مع اليهود في فلسطين، والأمثلة كثيرة جداً، و"التعرب" هو منهج حياة، وليس نسباً ولا عرقاً بشرياً، فما يقال اليوم من كلمة "البدو" للدلالة على أصل عرق القوم أو الرجل ليس هو "التعرب" المذموم في الحديث، وليس هو مرادنا في هذا الكلام، فـ"التعرب" هو العيش بلا اجتماع يُضبط بقانون ملزم للفرد داخل الجماعة، ولذلك قد يكون الرجل يعيش في المدينة وهو "متعرب" لا يعيش إلا لنفسه وبقانونه الخاص به دون الناس من إخوانه، ولكن لما كان العيش في جزء من الأرض يصنع هذا المنهج فصار الاسم ألصق بهم من غيرهم، ولذلك لما يحصل الاجتماع في "الأعراب" يحصل منهم للخير العظيم كما فعل عبد الله بن ياسين وهو أصل طائفة المرابطين في المغرب حين "مدّن" طوائف من "الأعراب" فكان منهم المجاهدون العلماء الذين حافظوا على الإسلام في المغرب زمناً وعلى رأسهم يوسف بن تاشفين، وكذا مثله ما صنعه السنوسيون حين قدموا من الجزائر وأنشؤوا في الصحراء ما يقال له "الزوايا" على طريقة وتسمية الصوفية، وهي حواضر تمدن، صار فيها العلم والاجتماع والجهاد.



هذا الحديث الذي بين أيدينا يحرّم أن يؤذي المسلمُ المسلمَ بلسانه أو بيده، فسبُّ المسلم فسوق، وهو كبيرة من الكبائر، والسب هو رمي المسلم بفاحش الكلام مما يؤذي نفسه وقلبه، و(كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه)، فلا يسب في ماله ولا في دمه ولا في عرضه، ولا يؤذي في واحد منها بفعل ولا بقول، وأعظم من السب هو القتال، لأن القتال لا ينشأ إلا وقد تضمن السب، بل كثيراً مما ينشأ القتال بسبب الكلام السيّء بين الناس، فملعون من حمل حديده على أخيه، والقاتل والمقتول في النار، وقد جاء في تسمية قتال المسلم كفر أحاديث أخرى كقوله: (لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض) فإن المسلم لا يقاتل أخاه إلا وقد غفل عن الإيمان وروابطه وما يأمر به، هذا وإن كان المقصود بالكفر هنا هو الكفر الأصغر الذي لا يخرج المرء من الملّة لقوله تعالى: (وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما) فسمى الطائفتين بالمؤمنين، ولكن لا يمنع أن هذا الكفر مما يحبط العمل، فإن الكبائر تحبط الأعمال فكما أن الحسنات يذهبن السيئات، فكذلك بعض السيئات يحبطن بعض الصالحات، ولذلك عنون الإمام البخاري على هذا الحديث قوله " باب خوف المؤمن من أن يحبط عمله وهو لا يشعر "، ولا يمنع أن ينشأ من القتال بين المؤمنين خروج بعضهم من الإسلام، فقد رأينا من والى المشركين ونصرهم ضد طائفة مسلمة يكرهها ويقاتلها، وقد حدث هذا كثيراً في تاريخ الإسلام، وهذا من باب تسمية الشيء باسم ما يؤول إليه، كما قال تعالى على لسان أحد السجينين مع يوسف عليه السلام: (إنّي أراني أعصر خمراً) وإنما الذي يُعصر هو العنب ليصير خمراً، والقتال بين المسلمين كثيراً ما يكون سبباً لأقوال الكفر وأفعاله التي تخرج من الملة، كأن يسب دينه أو يشك في الإسلام أو يوالي المشركين كما يُرى من بعض الأحزاب الإسلامية اليوم كما هو شأن البارحة.

إن من الواجبات الملقى على المسلم أن يبتعد عن أسباب الفسق والكفر ومن ذلك الحسد الذي يفسد الدين ويدفعه للظلم والسب والقتال، وكذلك العصبية لغير الحق، فالانتصار لا يكون إلا للحق دون النظر للأشخاص والمذاهب والأحزاب، والعجيب اليوم أن طوائف من المسلمين ساروا في ركاب الشرك كما حصل لبعض من كان من أهل الجهاد ثم انقلب على عقبيه حسداً أن غيرهم وقع عليهم الفضل الإلهي بالنصرة والتأييد، فوقع منهم ما وقع من اليهود كما قال تعالى: (بئسما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله بغياً أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده فباؤوا بغضب على غضب وللكافرين عذاب مهين)، حتى قال بعض من لا يتقي الله تعالى عن طائفة "طالبان " المجاهدة أنها عار على الإسلام، وذلك خلال حرب الكافرين لها، فكان قوله نصرة للكافرين على المسلمين، وهذا هو السبّ الذي يفسق به المرء ثم لا يمنع أن يكون بعد ذلك كفراً وقد وقع، والعياذ بالله تعالى.

إن أي سب وقدح في مسلم بغير حق هو من الفسق، ويشتد الإثم حين تُسبُّ طائفة لأخطاء اجتهادية، أو لفعل بعض أهلها دون بعضهم لتنفير الناس منهم، وذلك كما يقع من بعض طلبة العلم من سبّ مذاهب العلماء



بذكر بعض الأقوال الضعيفة سواء كانت اجتهادية أو خلافية حتى يسقط ما يجب من الإحترام لهذه المذاهب والعلماء فيها، ويجعلون ذلك طريقاً لإلحاق الناس بمذاهبهم أو مشايخهم، وهذا كله من قلة الدين والورع، وهو من السباب المنهي عنه ومن قلة الإنصاف وضعف الدين والعلم كذلك، والمسلم عليه أن يعلم أن أي سب، وهو ما يُلحِق العار بالغير هو من الفسق، وأشد منه القتال، فليس هناك شيء من أشياء الدنيا يجيز للمسلم أن يرفع حديدة في وجه مسلم آخر، وهذا ليس هو باب دفع الصائل، ولا القتال في الدفاع عن المال والعرض والنفس والدين، بل المنهي عنه هو القتال الذي هو من تحريض الشيطان، والذي دافِعُه الغضب والشهوة والإنتصار للباطل، وفي العموم كل قتال بين المسلمين فغيره أولى منه من العفو والصفح.

وليحذر الذين صار في أيديهم السّلاح سهلاً ميسوراً أن يتجاوزوا به الحد، كما على الذين آتاهم الله منابر الحديث والقدرة على الكلام أن يحذروا من أن يتجاوزوا به الحد، وباستقامة القوة (السلاح) مع استقامة القول يتم الفلاح ودوام الحال على خير ما يريده الله من عباده، أما فساد أحدهما فهو المَحَقِ والدمار.



الحديث الثامن

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن هذا الحي من الأنصار يقلون ويكثر الناس، فمن ولي شيئاً من أمة محمد صلى الله عليه وسلم فاستطاع أن يضُرّ فيه أحداً وينفع فيه أحداً فليقبل من محسنهم ويتجاوز عن مسيئهم).

إنه كما جاء في بعض الأحاديث أنه "في كل قرن سابقون"، يكونون طليعة الخير ومقدمي قومهم إلى الهدى والسَّبق، فإذا شاع الأمر وتسع ترى أن هؤلاء السابقين في خفاء وقلة، وكأن لم يكن لهم من الخير شيئاً، فيبرز للناس غيرُهم، ويتصدر سواهم، وهؤلاء القلة السابقة إن أخلصوا لربهم ونظروا إلى ما أعد الله لهم في الآخرة من وعود يفرحون لشيوع الأمر ويحمدون الله تعالى أن صرف عنهم زهرة الدنيا فلا يُنقص من أعمالهم شيء بسبب التعجيل، وكذا يفرحون أن الفتن صرفت عنهم، فهم ذاقوا مرارة البداية وعاشوا فتنة الضراء التي تصيب الدعوات في بدايتها، فإذا اشتد الأمر وصار له الصدارة جاءت فتن العاجلة والمال والقيادة والصيت والسمعة، وكذا فتن اللاحقين الذين دخلوا في الأمر مع قلة علم لحقيقته ولكنّهم التحقوا بالناس اتباعاً للشيوع والانتشار من الأمور، وهذه فتن السراء التي صرفت عنهم والتي تكون عادة للدعوات بعد انتصارها وشيوعها.

الأنصار هم مادة الإسلام الأولى في تحقيق انتصاره، تلك المادة التي كانت وقود الصبر الأول والجهاد الثاني، فقدموا الأرواح الغالية من قادهم الكبار كسعد بن الربيع الذي قُتل في أحد، وسعد بن معاذ الذي قتل في الخندق، وقدموا أصول أموالهم التي يقتاتون بها هم وأهلهم من الثمار والحدائق، وقطعوا كل أسباب القوة التي يركنون إليها قبل الإسلام، فاليهود أحلافهم انقلبوا عليهم بالعداوة، وقرى العلاقات من مكة والطائف صارت حرباً، وأعراب البادية مطامعهم في أرضهم وثمارهم وأهلهم، فذاقوا بحق مرارة البداية الحارقة، ولما كادت الثمرة أن تينع رأوا وإذا زهرها تُجْتَنَى ممن قاتلوهم على الإسلام، ففي حنين وقد جاء خير عظيم من غنائم غطفان وهوزان فما راعهم إلا أن المال والزهرة الجميلة تفيض بلا عد ولا كيل على "المؤلفة قلوبهم"، أما هم فلا شيء، وهاجت نفوسهم بالألم، مع خوف غشي القلوب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد وجد مكة بلدَه وسيكون فيها مستَرُّه، ومعنى ذلك أن يرجعوا إلى مدينتهم الحبيبة بلا شيء، ولن يجدوا فيها شيئاً، فقد خربت مزارعهم وثمارهم لانشغالهم بالجهاد عنها، وحينها لا يملكون إلا الدموع، فجرت هذه المعاني الحزينة على ألسنتهم بألم واستحياء دفين حتى وصلت إلى الحبيب صلى الله عليه وسلم، فأرسل لهم جامعاً، حتى إذا جاؤوا وقف يكلمهم، بل في الحقيقة وقف يفجر براكين الإيمان، ويرسل ريح الهدى، ويشعل قناديل النور، فرحلت النفوس للجنان وسمت على كل هذه الدنيا الفانية، كيف لا وهو كلام رجل أحبهم أكثر من أنفسهم، ويشفق عليهم أكثر من شفقة أمهاتهم عليهم، ورحيم بهم أكثر



من رحمتهم على أنفسهم، إنه كلام الحب العميق الذي يصل إلى حشاشة القلوب، واليقين البارد الذي يطفئ نيران الشهوات العاجلة والآلام الإنسانية، فقد عدّ فضائلهم على الخير، وذكّرهم بفضائل الخير عليهم، ثم "إن المحيا محياهم والممات مماتهم" وما سيرجعون به إلى رحالهم خير مما سيرجع به الناس، إنهم سيرجعون برسول الله صلى الله عليه وسلم.

هكذا هي سمة الأوائل مع دعوة الحق، وفي كل قرن، ومع كل إحياء وتجديد لهذا الدين، فالطليعة الأولى إما إلى الشهادة مع الإبتلاء، ومن بقي يتوارى عن مناصب الدنيا لكثرة الزحام بعد ذلك.

مع هذه السنة الجارية لا يمكن أن يصبر ويصمد إلا أهل اليقين على الآخرة، أولئك الذين عملوا لوجه الله، و لم يدخلوا في هذا الدين إلا من أجل الجنة والحصول على نعيمها، وأما من كان في قلبه دَخَن أو في نيته فساد فسيسخط وسيصرخ من قلة الوفاء حيث لم يضعه الناس موضعه، وسيتهم العاملين بانحراف الطريق وتغيير المسير، وما درى أنها السنن، ها هو أبو أيوب الأنصاري يرفض زماناً أن يقاتل تحت يزيد بن معاوية بن أبي سفيان وقد رأى ما يكره، وينكر ما لا يعرف، ثم يتذكر أنه جهاد في سبيل الله، فيعاود نفسه ويخرج تحت إمرة يزيد في فتح القسطنطينية ويصيب مبتغاه في الشهادة، فالجندي في هذا الدين لا يضره من يتصدر، لأنه جهاد في سبيل الله تعالى وعمل من أجل الجنة لا غير.

في هذا الحديث وصية من رسول الله تعالى بالرعيل الأول، وبالسابقين في الخير حيث يكثر الزحام، وصية بهم للأمراء ولكل من بيده زهرة دنيا أصابها من هذا الدين أن لا ينسى هؤلاء، بل يقيم لهم ما يميزهم عن غيرهم، فهؤلاء ليسوا ككل الناس، فهم أتوا عند القلة والضعف، فإيمانهم له السّبق وله الفضل لذا يستحقون ما يميزون به، ولذلك جعل الله السابقين –(ثلة من الأولين وقليل من الآخرين)– وهؤلاء بخلاف غيرهم من أهل الخير من أهل اليمين فقد قال فيهم: (ثلة من الأولين وثلة من الآخرين)[1] فالسابقون دائماً في قلة في آخر الأمر، والآية وإن كانت تتحدث عن الصحابة ومن بعدهم في بعض أقوال أهل التفسير، فالسابقون كثير في الصحابة وقليل فيمن بعدهم وهو اختيار ابن كثير رحمه الله في تفسيره فإن الآية تفيد كذلك في بعض معانيها قلة السابقين في كل قرن كذلك والله أعلم، فهذه القلة يجب على الأمة عموماً وعلى الأمراء خصوصاً أن يراعوا فضلهم فيقبلوا منهم القليل إن أحسنوا، إذ قليلهم ليس بقليل كما قال القائل:

قليل منك يكفيني ولكن   قليلك لا يقال له قليل

---

[1] ابن كثير رحمه الله ضعّف قول ابن جرير ومن تبعه ممن قال بقوله كالقرطبي في قوله: إن المقصود بالثلة من السابقين هم الأمم السابقة من أتباع الأنبياء، وإن القليل من المتأخرين هم من هذه الأمة، وقال القرطبي: وسُمُّوا قليلاً بالإضافة إلى من كان قبلهم، لأن الأنبياء كانوا كثرةً فكثُر السابقون إلى الإيمان منهم. قال ابن كثير: القول الذي اختاره ابن جرير فيه نظر بل هو ضعيف. وما قال ابن كثيرصحيح، ويشهد له قول صلى الله عليه وسلم: (نحن الآخرون السابقون).



و في الحديث في فضل السابقين من أصحابه على بقية الأصحاب: **(لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهباً ما بلغ مدّ أحدهم ولا نصيفه)**، وقد عُلم أن كثرة العبادة صارت في المتأخرين أكثر من الاولين ولكن هيهات أن يبلغ فضلها ما بلغ به الأولون، لأن الأولين هم أصل الأمر وأوله وهم الداعون له، والتابع تابع كما قالوا فما هو إلا فرع لأصل ولاحِقٌ لمتقدم، فهل ما أنفَقَتْه خديجة رضي الله عنهما مهما كان قليلاً في ظاهره هو أقل مما أنفقه أي لاحق؟! لا والله، وهل ما أنفقه أبو بكر رضي الله عنه كما أنفقه غيره؟! وهل المعادلة تكون بالعدد أم بالأثر والسبق والتقدم؟! اللهم إن الأولين السابقين لا يعدلهم أحد في الفضل والإيمان وهؤلاء السابقون إن أساؤوا –و هي صفة لازمة للبشر مهما كان صلاحهم وفضلهم لقوله صلى الله عليه وسلم: **(كل ابن آدم خطّاء وخير الخطّائين التوّابون)**– فإن أساؤوا في غير الحدود فحسناتهم ماضية عند الله وكذا يجب أن يكون الأمر عند البشر، فعلى الناس أن يتجاوزوا ويعفوا ويصفحوا عن سيئاتهم، فلا يلاحقونهم كما يلاحقون غيرهم، ولا يثربون عليهم كما يثربون على الصغار، وهذا ليس من الباب الذي حذّر منه رسول الله صلى الله عليه وسلم ووقعت فيه بنوا إسرائيل: **(إذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد وإذا سرق الشريف تركوه)**، فهذا يفترق في أمرين: أن المنكر في هذا الحديث هو إسقاط الحدود وهي حق الله لا تسقط عن أحد، ولو سقطت الحدود لسقطت عن مسطح بن أثاثة رضي الله عنه في حادثة الإفك وهو البدري الذي قال عنهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: **(لعلّ الله اطّلع على أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم)**، والثاني: أن معيار التفضيل عند المغضوب عليهم هو الشرف والفقر والقوة والضعف، وهذا شر وسبيل شراء الذمم وضياع الحقوق.

فيا أهل الجهاد، ويا أهل الخير والفضل احفظوا لأهل الفضل فضلهم، فاحفظوا للسابقين سبقهم، وللأنصار انتصارهم ولأهل البيت قرابتهم من الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم، ولأهل العلم علمهم، وأنزلوا الناس منازلهم، فخيار أهل الإسلام هم خيارهم في الجاهلية إذا فقهوا، وأشد الناس محبة لهذا الدين هم أشدهم عداوة له قبل الإسلام كما في الصحيح معناه.

اللهم إني أحب الأنصار من أهل مدينة الحبيب واحشرني مع لوائهم يوم القيامة.





الحديث التاسع

عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (هل تنصرون وترزقون إلا بضعفائكم).

الأمة تراعي أبناءها كأبناء الأم الحنون ترعاهم أمهم بحسب حاجتهم وكما قال الأعرابي وقد سئل: من أحب أبنائك إليك؟ فقال: "الصغير حتى يكبر، والمريض حتى يبرأ، والغائب حتى يعود"، فالرعاية والحب والعطف لا يكون بحسب الفضْل والقوة بل قاعدته الصحيحة بحسب الحاجة والضعف، وقانون الحب هذا هو قانون دوام الحياة وسرها الباطن، فالقوي حاله حال ضالة الإبل: (مالك ولها، معها حذاؤها وسقاؤها، ترد الماء وتأكل الشجر) كما قال حبيبي المصطفى صلى الله عليه وسلم، فالقوي يوكل إلى قوته، لكن العبرة والإحسان إنما يكون للمحتاج الضعيف، يراعى بحسب حاجته، وقد نشأت مجتمعات وتجمعات بشرية لا تقيم إلا لنوع واحد من القوة الأهمية والاعتبار، وتنبذ ما عداهم ممن لا يملكون هذه القوة وهذه التجمعات وإن بدت سليمة في بداية الأمر إلا أن عوامل الضعف سرعان ما تسارع إليها، لأن الحياة لا تقوم على نوع واحد مهما كان هذا قوياً، فالإستقلال مهلكة كالاقتصار على نوع واحد من الطعام، فإنه مهما كان هذا الطعام مغذياً مليئاً بالفوائد إلا أن الاقتصار عليه يوهي البدن ويضعف صاحبه ويورده الموت والهلكة، فالحياة لا تستقيم بعلم بلا قوة، ولا بقوة دون رحمة، ولا برحمة دون مسؤولية، ولا بمسؤولية دون مشورة، وهكذا سبيل الحياة، وعالم الغيب ليس غائباً في تأثيره عن الحياة الدنيا وإن كان غائباً بصورته عن الأعين فيها، فحركة الغيب المرتبطة بالإخبات والدعاء والطاعة والمعصية لها حقائق واقعية على الارض ومن يعيش عليها من إنس وجن وحيوان ونبات، فالذين ينظرون إلى الحياة الدنيا وحساباتها فقط من ماديات ومحسوسات سيصيطرون بالسنن الإلهية المتعلقة بحبّ الله وبغضه ولذلك جعل الله من انتقامه لأعدائه أن يأخذهم "بغتة"، أي دون وجود مقدمات تنذرهم للتغيير والتحضير لها والدارسون للسّنن الإجتماعية خاصة يعلنون كثيراً أن علوم الإجتماع في دراسة الظواهر ليست مطلقة إذ كثيراً ما تحصل هبات مفاجئة تصدم الدارسين والمراقبين، وهو تحقيق لهذا التحذير الإلهي بالبغتة، وأما الظواهر الكونية من الزلازل والبراكين والأعاصير فأمرها في هذا الباب أشهر من غيرها، وهي بحق ينطبق عليها لمن أراد البصيرة قوله صلى الله عليه وسلم عن العدوى: (فمن أعدى الأول)، والقصد أن عالم الباطن وعالم الغيب حضورهما بالتأثير في عالم الشهادة بيّن وواضح لأولي الألباب، وكذلك المجتمعات لا تشعر بحاجتها للرحمة والعطف، وتعلم أن الضعيف لازم من لوازم الحياة كما القوي، وهذا أمر لا نختاره بل هو سنة الحياة التي نتعامل معها من خلال قانونها ووجوده.



في حركة الأمة والطوائف للجهاد، وهي حركة أصيلة ثابتة لأمة محمد صلى الله عليه وسلم بل لاحياة لأمة من الأمم إلا بها لقوله صلى الله عليه وسلم: (ما غزى قوم في عقر دارهم إلا ذلوا)، قد ينشأ وهم أن هذا المجتمع معسكر لا لزوم فيه إلا للأقوياء والأصحاء والشجعان فبالتالي غيرهم عالة عليهم، وفي مدينة اسبارطة القديمة وصل غرور القوة وعسكرة المجتمع أنهم كانوا إذا وُلِد ولدٌ ضعيف أو فيه مرض أو تشوّه ذهبوا به إلى جبل عال ورموه من فوقه تخلصاً منه لجاهليتهم أنه لا حاجة لحياتهم له، فهذا الحديث النبوي تنبيه لتأثير عالم الغيب على عالم الشهادة، فالضعفاء هم محط نظر الله تعالى، لأنهم أحوج من غيرهم لهذا النظر، فحيث كان البلاء كانت الرحمة، إذ أن عدل الله ورحمته يمنعان العسر بلا يسر، والضعف بلا رعاية، والحاجة بلا عناية، وهذا العدل الإلهي هو الذي يحبه الله لعبيده أن يتصفوا به، وهذه الرحمة التي إن وجدت في القلوب كانت سبباً لرحمة الله تعالى، وهؤلاء الضعفاء تنكسر قلوبهم بصدق عند الطلب فهم يسألون من حاجة، وفرق بين سؤال الممتلئ وسؤال الفقير، والله يحب هذا من عبيده لأن العزة هي إزارُه والكبرياء رداؤه، والله لا يحب كل جبار متكبر، ولذلك كثر في الجنة الضعفاء وهم دوماً أتباع الأنبياء كما قال هرقل في حواره مع أبي سفيان، ومن السنن الحميدة أن يُخرج إلى الدعاء بالبذاذة ومع الضعفاء والمحتاجين، وقد ذكر الله في كتابه أن من مساوئ ترك الجهاد هو حصول النقمة والغضب من الضعفاء على أهل القوة لتقصيرهم وقال تعالى في سورة النساء: ﴿ومالكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنّساء والولدان الّذين يقولون ربّنا أخرجنا من هذه القرية الظّالم أهلها واجعل لنا من لدنك وليّاً واجعل لنا من لدك نصيراً﴾ فغضب هؤلاء هو سبب غضب الله تعالى كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبي بكر وقد حذره من إغضاب أمثال هؤلاء فقال: (إن كنت أغضبتهم فقد أغضبت الله).

وهذا الحديث وإن كان فيه فضل الضعفاء على الأقوياء، إذ لا يرزق الأقوياء ولا ينصرون إلا بالضعفاء، فإن هذا لا يعني أن الضعيف مقدم في إيمانه على القوي، لأن اجتماع القوة مع الإيمان خير من استقلال الإيمان لوحده بلا قوة، لقوله صلى الله عليه وسلم: (المؤمن القوي خير وأحبّ إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كلٍّ خير) لأن مقاصد الإسلام في الفرد والجماعة لا تقوم إلا بالقوة، وكون الشيء محتاج إلى غيره لا يعني أن غيره خير منه، فالإنسان محتاج إلى الطعام والخادم وغيرها وليس هما بأفضل منه كما هو معلوم، ولذلك من الواجب السعي للقوة، فقد قال تعالى: ﴿ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التي جعل الله لكم قياماً﴾ فالمال قوام الحياة ولا يجوز إفساده بإعطائه لغير رُعَاتِه وحَفَظَتِه، وقال تعالى: ﴿وأعدّوا لهم ما استطعتم من قوة﴾، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم في عمرة القضية لأصحابه لما دخلوا مكة وهي في يد المشركين من قريش: (رحم الله امرءاً أراهم منّا قوة)، وإنما يكون الفضل للضعيف لعدم قدرته على تحصيل القوة وأما المقصِّر فهو آثم تارك لواجب.





الحديث العاشر

عن أنس رضي الله عنه أن رجلاً سأل النّبي صلى الله عليه وسلَم: متى الساعة يا رسول الله؟ قال: (ما أعددت لها؟ قال: ما أعددت لها من كثير صلاة ولا صدقة ولكنّي أحبّ الله ورسوله. قال: أنت مع من أحببت) قال أنس: " فما فرحنا بشيء فَرحَنا بقول النبي صلى الله عليه وسلم: (أنت مع من أحببت) فأنا أحبّ النبي صلى الله عليه وسلم وأبا بكر وعمر، وأرجو أن أكون معهم بحبّي لهم وإن لم أعمل بمثل عملهم).

الحياة الدنيا لها عنوان جامع لحركة الموجودات فيها، هذا العنوان هو " الحب "، وهو المعنى السائر في هذا الكون وفي الإنسان، ومن خلاله تحصل الإرادات وبالتالي تتم الأفعال والأقوال، وهذا شيء يعرفه الناس بمعمومهم حين يدركون أسرار الوجود، ولكن من عظمة هذا الدين أن يجعل الحياة الآخرة كذلك، فهي حياة قائمة على الحب كذلك و" الحب " هذا المعنى اللطيف الآسر، فيملك قوة التأثير مع خفائه، وموطنه القلب الباطن، وآثاره على الوجود المشهود، ففي الإنسان يظهر على وجهه وقسماته، وعلى أقواله وحركاته ونومه وقيامه، والوجود كله لا يكتسب جمالاً ونضرة إلا بالحب، فحياة الوجود من حركة وإرادة تنشأ بالحب، وجمال الوجود ونضارته لا يكون إلا بالحب، والعبودية لا تنشأ إلا بالحب، وكذا المتابعة، والأسرة لا يستقيم أمرها إلا بالحب سواء بين الزوج والزوجة أو بين الآباء والأبناء، وكذا المجتمع الحي لا يستقيم إلا بهذا المعنى اللطيف الجميل والعظيم كذلك.

إن البشرية معرضة أن تتحول إلى وحوش ينهش بعضها بعضاً، وإلى مصالح جافة لا فضل فيها للمعاني الباطنة، وبالتالي تنشأ الشرور والبغضاء والحروب النجسة والمنافسة البغيضة.

إن هذا الدين دين الجمال والمعاني اللطيفة السامية، دين يُنشئ علاقة حب وجمال بين الإنسان والمخلوقات من غيره مهما بدت جامدة لا حياة فيها، فرسول الله صلى الله عليه وسلم يقول عن جبل أحد: (يحبنا ونحبه)، فالجبلُ يُحِبّ ويُحَبُ والمدينة المنورة مدينة حب لقوله صلى الله عليه وسلم: (اللهم حبب إلينا المدينة كحبنا أو أشد)، ولذلك إذا مات الكافر (فما بكت عليهم السماء والأرض) أي أنهما يبكيان على المؤمن لعلاقة الحب بينهما، وأخبار الحب بين الصحابة ودوابهم وشجرهم كثيرة جداً، وأما مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فهي عجب من الأعاجيب فها هو يخرج ويكشف عن كتفه الشريفة ليتعرض إلى المطر ويقول: (إنه حديث عهد بربّه)، إنه بصر الباطن في الأشياء والموجودات ورؤية أسرارها الخفية الجميلة، وعلاقتها بأعظم محبوب وأجمل موجود، إنه الوحيد الذي يُحَب لذاته: إنه الله تعالى. ورسول الله صلى الله عليه وسلم يُسأل: من أحب الناس إليك؟ فيقول: (عائشة). فهي حبيبته وهو حبيبها ولا خجل في هذا المجتمع من هذا الحب الرائع العظيم، يحبّها حتى إنه ليضع فمه



على مكان شربها من الإناء ليمس بفمه الشريف مكان فمها الطيب الجميل، فأين هذا من مجتمعات القسوة التي يخجل المرء من إعلان حبه لمحبوبته وزوجته ثمّ يُسأل عن أحب الرجال إليه فيقول: (أبو بكر)، فالرجل يحب الرجل، ومن الدين أن يخبر المر أخاه أنه يحبه، ولقد كان من محبته للأطفال أن يمر بهم ويسلم عليهم، ويوطئ كتفه الشريف إن أرادوا لعباً أو لهواً يليق بهم، فهو ينحني ليركب أبناؤه –الحسن والحسين رضي الله عنهما ولعن الله من أبغضهما وقتل الحسين– هما يركبان على ظهره الشريف وبحب رائع جميل، وكان يحب البنات فكان يبش لرؤية حبيبته فاطمة ويوسع لها ويفرش لها رداءه، واسمع إلى حديث الحب مع بنت تلهو بختم النبوة على ظهره: **فعن أم خالد بنت خالد بن سعيد قالت: أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم مع أبي وعليّ قميص أصفر، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (سَنَه سَنَه) وهي بالحبشيّة ومعناها "حسنة حسنة"، فذهبت ألعب بخاتم النبوة فزجرني أبي. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (دعها) ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أبلي وأخلقي ثم أبلي وأخلقي ثم أبلي وأخلقي)** فليس هناك شيء مقدس عن لمس الطفل يمنع منه، بل كان الطفل يبول في حجر النبي صلى الله عليه وسلم، وما أمْرُه بالرش من بول الطفل والغسل من بول الجارية إلا إشارة أن لا يمنعكم بولُهم من حملهم واللعب معهم فعلاً من أفعال الحب اللائقة بين الناس.

بالحب وحده تحصل المتابعة بين التابع والمتبوع فمن غير حبٍّ قلبي لرسول الله صلى الله عليه وسلم لا يحصل التأسّي والانقياد.

وبالحب وحده تحصل العبودية لله رب العالمين، فحينها تُنصب الأقدام وتنفق الأموال وتزهق الأرواح وتبذل النفائس رجاء أن ترى وجه المحبوب يوم القيامة.

وبالحب وحده يُطاع الأمر في الباطن عن رضا وقبول كما يطاع في الظاهر، ولا حياة للمجتمعات والجماعات إلا بهذه الطاعة الباطنة الراضية.

إن المعاني الجميلة ليس أمراً زائداً عن الحياة، وليست مكملاً لضرورات وحاجيات الحياة، بل هي أسّ الحياة وضرورتها الأولى وغيرها مكمل لها وهامش على جوانبها، ومن لم يفهم هذا فهو أضل من دواب الأرض وأنعامها، لأن الأنعام تفهم هذه المعاني وتراعيها على حساب أشيائها بل وعلى حساب حياتها، فالأسد يموت من أجل زوجته والدب يموت من أجل أولاده، وقد ذكر الله في كتابه أن من عذاب الله تعالى على الناس أن تضيع هذه المعاني بين الناس والدواب والجبال والبحار فقال سبحانه: **(ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي النّاس ليذيقهم بعض الّذي عملوا لعلهم يرجعون)**.

تبقى مسألة وهي مهمات تحصيل الحب، والحق أن الشرع كله من كتاب وسنة ما وضع إلا لهذا المقصد، وكلما حصّل المرء طاعة بينه وبين ربه اقترب بمقدارها إلى حب الله بل أكثر منها لأن كرم الله يقتضي ذلك فقد قال تعالى: (من أتاني يمشي أتيته هرولة)، ولكما حصل المرء طاعة بينه وبين ربه يزداد قرباً من أحباء الله وعبيده



وخلقه، وكذا تحصيل الطاعات مع الخلق من حسنِ خُلقٍ وإنفاق ورحمة بهم وعفو عن إساءتهم وتغابي عما يفعلون كل ذلك وغيره من خيرات الحب، وتفصيل ذلك يطول، ولكن المقصد أن الحب هو ميزان الدنيا وعنوانها، وهو ميزان الآخرة ودرجاتها، فأحبوا الصالحين والمجاهدين والعلماء والعاملين تحشروا معهم يوم القيامة برحمة الله وفضله، وأميتوا شرورَ القلوب وإساءات الآخرين بالحب، وقد صدق من قال: " اقتلوا أعداءكم بالحب "، فوالله إن الأمر كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد شكى إليه أحد أصحابه فعل قَرابته له، أنه يصلهم وهم يقطعونه، فقال: (إن كنت كما تقول فإنّما تسفّ في أعينهم الملل) أي الرماد الحامي، فإن الخصم يفرح إن رأى أنه أصاب منك، فلما يراك لا تغضب لصنيعه بل تزداد له قرباً وصلة فإما أن يصلح أمره كما قال تعالى: (فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه وليّ حميم) كما صارت صفية بنت حيي بن أخطب حبيبة لقاتل زوجها وأبيها وعمها وإما أن يعذّب بإحسانك له.

وعلى كل فهذا باب تُؤلف فيه المجلدات شهد الله لكن ما أردت إلا الإشارة لأهمية هذا الباب، فإن كثيراً من الناس في عقله قل هذا العمل القلبي العظيم، وكفى بفضله أنه يثقل الضعيف حتى يلحق بالكبار والعاملين، فإن المر مع من أحب، وإنه من عدل الله ورحمته أن يجمع الأحبة ولا يفرق بينهم.





الحديث الحادي عشر

عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: بعثني رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعاذاً إلى اليمن وقال: (يسِّرا ولا تعسِّرا، وبشِّرا ولا تنفِّرا وتطاوعا ولا تختلفا).

الأمم والمجتمعات والجماعات لها أرواح، وأرواح الأفراد كأرواح الجماعات تنبسط وتنقبض، وتحزن وتفرح والروح لما تقبض بالقهر والقسوة والعنف تتعطل قواها الفاعلة لأنها تنكمش نكوصاً إلى داخلها الحزينة، وتتلبس باليأس إن طال القهر وامتد زمانه، ولا يوجد ثمة بيئة تمتج الإبداع وتقوّيه سوى بيئة التسامح والإنفتاح والحبور والأمل، فهذه بيئة العطاء، لأن النفس المبتهجة هي التي تفكر بالإبداع والإحسان، وتنطلق من هموم ذاتها إلى غيرها بالحب والعطاء، والقهر والقسوة والعنف وإن حققت بيئتهم بعض النتائج حيناً إلا أنها لا يمكن أن تدوم، فالخوف إن طال إما أن يتحول إلى مرض ووسواس قهري وإما بالمخالفة والإنقلاب حين يتم التجاوز.

المجتمع الإسلامي والأمة الإسلامية والجماعات الحية التي دام تأثيرها كمذاهب العلماء وحلقات الدراسة مادامت إلا بهذا القانون النبوي العظيم (بشرا ولا تنفرا وتطاوعا ولا تختلفا).

أما اليسر فهو في التكاليف والمهام العملية.

وأما التبشير فهو في الخطاب ومقال اللسان ومقام البيان.

وأما التطاوع فهو في مقام الآراء في تحقيق الإجتماع والأنفة.

فالراعي ييسر على رعيته في التكاليف ولا يكلفهم ما لا يطيقون، فلا يطلب منهم " كرائم أموالهم " كما جاء في الحديث الشريف، ولا يشق عليهم فيخونوه ويخدعوه، فالأب والأم والمعلم والسيِّد والأمير والسلطان كل هؤلاء لا يستقيم لأمرهم تنفيذ أو دوام إلا بأن ييسروا على رعيتهم، لأن الحياة طويلة، والتكاليف دائمة ليست ليوم ولا يومين بل للعمر كله وبهذا الحال لا يتم التواصل إلا باليسير لا العسير.

وبالتبشير يتم دفع النفس للعمل، فهو وقودها لا تقوى إلا به، ولا تتواصل إلا بهذا المدد، ومن ذلك الذي يقال له " التشجيع "، وهي تسمية معاصرة لممارسات عملية كالهدية وقولية كالمديح تدفع صاحبها للإقبال على العمل وبذل المزيد من الجهد، وهذا باب معطّل في العمل الإسلامي بسبب التربية الفاسدة في مجتمعات إسلامية معينة وبسبب غزو الدين الصوفي لكثير من عقول المربين والعلماء.

لنر ما تقوم به التجمعات الجاهلية من مديح و"تشجيع" لرجالها وأعمالهم، ولنقارن هذا ما يحصل في الصف الإسلامي، وذلك لانتشار الحسد والتنافس الجاهلي بين أهل الإسلام، وكأن تقدم واحد مضر بالآخرين، و لم يعلموا أن تقدم مسلم إنما هو للإسلام وإن ضُرَّ مسلم هو للمسلمين جميعاً، لكنها جاهلية الشر من الحسد والكبر



والغرور.

بالتيسير يحصل الدوام وبالتبشير يحصل الاندفاع وكثرة العطاء، والنفوس تُظْلِم بكثرة التقريع والغلظة، وتدبر إن لم تجد من يكشف لها حسن ما تعمل كما تجد من يصوّب خطأها، وليس هذا من باب الرياء في شيء لا من قريب ولا بعيد، فإن الرياء هو أن يعمل المرء عمله لغير الله، وذلك بأن يطلب رضاهم غير ناظر إلى وجه الله والدار الآخرة، أما فرح النفوس حين ترى تقدير الناس لأعمالهم مع أن عملها ما قام إلا لوجه الله تعالى فهذا شيء منتشر بين أخلص القلوب وهم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وكم كان يسوؤهم أن يروا الكراهة في نفوس إخوانهم لما يفعلون، ومن ترك الشر حياءً من الناس فهو مؤمن لأن الحياء من الإيمان، ومن عمل عملاً من الصالحات لإدخال البهجة على نفوس الصالحين من إخوانه فهو مؤمن لأن أصل الفعل هو الحب في الله والبغض في الله، وهذا من لم يدركه فهو جاهل صوفي أخرق.

فالتبشير وهو ذكر الحسنات والبشائر والفأل إنما هو وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم لأمته، وهي وصية أليق بالرعاة والأئمة والقادة والعلماء وهي بحق لا تليق إلا بهم، وما كان يذكره رسول الله صلى الله عليه وسلم من فضائل أصحابه، وما يظهره من فرح لما يعملون من خير شيء كثير جداً في سنته، ولذلك كانوا في تنافس لكسب حبه ووده وسروره.

وقوله صلى الله عليه وسلم: (تطاوعا ولا تختلفا) إنما هو لدرء أسباب الفتنة والضعف وذهاب الريح والقوة، وهذا لا يكون إلا بأن يطيع كل واحد صاحبه ويرى لقول صاحبه فضلاً على قوله، وإن من أفسد الأخلاق وأقبحها في الحياة ما يقال له " التصلب في الرأي " و" الإصرار على القول "، وإن من الشر أن يرى البعض أن هذا من قبيل الرجولة والبطولة أو أنه من قبيل الثقة في النفس، لا والله بل هو من باب الشر والشيطان، فإن الحكيم هو الذي حرّكتْه التجارب وأدرك أن الحياة تتسع لأقوال الآخرين كما تتسع لرأيه، وأن قوة الفعل أن تدرك مآخذ قول أخيك وترى وجه حسنه وصوابه كما ترى مآخذ قولك وحسنه وصوابه، وإن هذا والله من باب العقل والتجربة والحكمة وسعة العلم.

الصغار مهما كبرت مناصبهم وأسماؤهم هم الذين لا يرون إلا أنفسهم ولا يثقون إلا بأقوالهم وأما الكبار فهم الذين يسَعُون الناس ويصبرون على متابعتهم والاستماع لهم واحتمال آرائهم والنزول عليها، ثم إن الاجتماع أهم مقصد يجب أن نسعى له، ومن أجله قد يتم التنازل عن بعض الحق من أجل ما هو عظيم جليل، إذ الاجتماع هو الشرط الأوليّ لتحقيق مصالح الإسلام ومقاصده.

ما أدوم الحياة وأجملها بهذه الوصايا لأن فيها متعةَ الروحِ وإبداعَاها ودوامَها، وما أشقى الحياة وأقساها وأظلمها حين تخالفها وتسير في الضد منها.





الحديث الثاني عشر

عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: (مَثَل المسلمين واليهود والنصارى كمثل رجل استأجر قوماً يعملون له عملاً يوماً إلى الليل على أجر معلوم فعملوا له إلى نصف النهار، فقالوا: لا حاجة لنا إلى أجرك الذي شرطت لنا، وما عملنا باطل، فقال لهم: لا تفعلوا، أكملوا بقية يومكم وخذوا أجركم كاملاً، فأبوا وتركوه، واستأجر آخرين بعدهم، فقال: أكملوا بقية يومكم هذا ولكم الذي شرطت لهم من الأجر فعملوا حتى حين صلاة العصر قالوا: لك ما عملنا باطل ولك الأجر الذي جعلت لنا فيه. فقال لهم: أكملوا بقية عملكم فإن ما بقي من النهار شيء يسير، فأبوا، فاستأجر قوماً أن يعملوا له بقية يومهم فعملوا بقية يومهم حتى غابت الشمس واستكملوا أجر الفريقين كليهما – فذلك مثلهم ومثل ما قبلوا من هذا النور).

الحرص على النهايات ينبغي أن يكون بمقدار هِمّة البدايات وإلاّ خاب المسعى وضاع الجهد والعرق، والنفوس قد تنشط للبدايات لأسباب عديدة منها عدم إدراك النفوس ما ستلاقيه من تعب ونصب إذ تقبل على الأعمال برؤية الجمال فإذا أصابها لظى العمل وقسوتُه ارتدت وانتكست، ومنها أن بعض الأعمال تبدأ بصفة الجمهور وبنزعة القطيع ثمّ تبدأ التصفيات وصولاً للقلة الواعية، ومنها ما يصيب النفوس من كسل أو يأس، كسل في الإرادة والأعمال، ويأس من النتائج إن طالت الطريق، وكل هذا من أمراض النفوس وعد تقتها بالحق نفسه، (و ما يلقّاها إلّا الّذين صبروا وما يلقّاها إلّا ذو حظٍّ عظيم)، فالصبر هو وقود الثبات، وكما قال الله تعالى: (و جعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لّما صبروا وكانوا بآياتنا يؤمنون) " فالصبر يمد بالثبات، واليقين يمد بالأمل "، ولا علاج للنفوس إلا بالثقة على الحق وعدم الندم على ضياع الشهوات الدنيوية، والعاملون لدين الله تعالى من مجاهدين وعلماء ودعاة هم أحوج الناس إلى الصبر واليقين، فإن الطريق طويل طيلة الحياة إلى الموت، والطريق شاقّ محفوف بالإبتلاء، إبتلاء يصيب البدن وابتلاء يصيب العقل والمعاني، وهكذا المعالي لا تكون إلا بالكَبَد كما قال تعالى: (أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مسّتهم البأساء والضراء وزُلزِلُوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله؟ إلا إن نصر الله قريب)، وفي الآية أنه لا يكون النصر واليسر والفتح حتى تَصلَ ذروةُ الإبتلاء أقصاها كما قال الله عن الثلاثة الّذين خُلِّفت توبتهم: (حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم)، والقصد أن الخط البياني مع البلاء في صعود وكلما ارتقى الإبتلاء درجة سقط قوم والتحق آخرون، فمن سقط يسقط لجهله وشهوته، ومن التحق فإنما لالتقاء عقله وقلبه مع هذه المعاني الراقية العظيمة، فإذا كانت النهايات لم يخلص إليها إلا ذو حظ عظيم كما قال الله



تعالى، فهذا الدين عمل مع الله تعالى وهو دين الآخرة كما قال عن أصحابه: (إنّا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار).

في هذا الحديث التحذير من النكوص على الأعقاب قبل التمام، فإن عدم التمام يدمر البدايات، فتعساً لرجل عمل للجنة حتى إذا اقترب المغيب صار إلى أصحاب أعمال النار.

في واقعنا كم رأينا من كانت بدايته على خير ودين ونصرة للحق وأهله، وصدعاً بكلمة الحق حتى لتظن أن هؤلاء هم وُرّاث المرحلة، فيُبسط لهم في قلوب الخلق حباً ثمّ إن هي غلوة طريق حتى أخذوا ذهاباً يميناً وشمالاً فبئس ما ضيعوا.

وفي الحديث إشارة أن السبق لا يُمدح إن لم يواصل، فالسابقون فضلهم بالثبات حتى اليقين، أما تجار التاريخ الذاهب والزمن الخالي وهم في عدوة أهل الباطل فهؤلاء ذمُّهم أولى من غيرهم لأنهم عرفوا الحق وأعرضوا عنه.

لقد علمتني الحياة قيمة هذا الحديث وهو صعوبة النهايات ومشقتها على النفوس، فإن الهمم يصيبها التعب كما يصيب الأبدان، والمرء يحتاج إلى تجديد همّته كما يحتاج إلى تغذية بدنه، وتغذية الهمم تكون بالتذكرة ورفقة الأصحاب، والحرص على مجالسة المبتدئين في قوتهم وإقبالهم وهدايتهم فلهؤلاء قلوب جديدة وهمم سابقة، إذ أن طول الأمد يخلق ويبلي.

أهل الجهاد هم أولى الناس بهذا الحديث، فإن الناس يعلمون أن النصر مع الصبر، وفي لحظات تهب رياح وتذهب رياح، فعندما أضاع الصحابة رضي الله عنهم هذا المعنى أصابهم ما أصابهم، وفي حنين حيث تداعت الصفوف وتضعضعت وصاح من صاح أن بطل السحر، ثبت رسول الله صلى الله عليه وسلم مع قلة لا يصلون للمئة فحصل النصر وهبت رياحه حتى وقع ما يحب الله ورسوله والمؤمنون، ولذلك الحذر من حصول الغفلة أو التهاون أو اليأس، فكم من نصر بالغفلة والتهاون صار هزيمة وخزي وعار، وكم من هزيمة تحولت بدفع اليأس وحصول اليقين إلى نصر وتأييد، ثم ليحذر المجاهد أن يركن على تاريخه ويضع السلاح فإن في ذلك ضياع أجره وذهاب فضله.

وفي الحديث كذلك فضل اللاحقين إن ورثوا الأمر كما يجب، لأن كثيراً من اللاحقين إنما تأخروا لمعاني في قلوبهم أو لظروف في أحوالهم فلما حصل الخير ارتقت نفوسهم بمعاني حصلوها مع الإيمان ومراتب حصولها بالعمل والمواقف، ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم: (استكملوا أجر الفريقين كليهما)، فهذا الفاروق ابن الخطاب الذي كان إسلامه عزّاً للإسلام وكان لإمارته فتح وصفه الحبيب المصطفى بقوله: (لم يفر أحد فريه)، وذلك فضل الله تعالى يقع على أهله ومن يستحقه.





الحديث الثالث عشر

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: (يعقد الشيطان قافية رأس أحدكم إذا هو نام ثلاث عقد، يضرب على كلّ عقدة مكانها: عليك ليل طويل فارقد، فإن استيقظ فذكر الله انحلّت عقدة، فإن توضّأ انحلّت عقدة، فإن صلّى انحلّت عقده كلّها فأصبح نشيطاً طيِّب النّفس وإلا أصبح خبيث النّفس كسلان).

العمل قد يفسد في بدايته، وفساده في بدايته بتسويفه وتأجيله تحت ظن إمكانية إدراكه في زمن آت، فالعمر طويل!، وقد يفسد في وسطه بعدم تمامه وترك إكماله، وقد يفسد لفساد مقدماته، فالمقدمات الفاسدة تنشئ النهايات الفاسدة.

فالعمل الصالح لا يتم إلا بإرادة تمحو التسويف والتأجيل، وتنبيه حتى التمام، ويجبّ له مع علم به والشيطان يعمل عمله في رغائب النفس وشهواتها، وتذهب قوته وتأثيره بالعمل الصالح اللازم للفعل، فهذا الإنسان حين ينام –والنوم راحة للبدن لابدّ منه لكنه يصبح رغبة وشهوة لها علاقة بالكسل إن طال وخرج عن حده– يعقد الشيطان على رأسه من الخلف ثلاث عقد، لا عقدة واحدة، وهذه طبيعة الحياة قائمة على التركيب، فلا يوجد شيء في الدنيا متوحد يقوم بنفسه دون غيره، سواء كان من أعمال الخير أو الشر، سواء في الخلق أو النفس، وإذا كان الأمر كذلك فلا يصلحه ولا يتم بناؤه بفعل واحد بل لابدّ من تكرار له في حالات أو في مزجه في حالات معينة، وهذا كما في قدر الله تعالى فهو في شرعه كذلك –وسيأتي إن شاء الله تعالى شرح ذلك في باب الشرعيات كالدعاء–، وهذه العقد الشيطانية مع تركيبها إلا أنها تتلاءم مع المحل وإلا لما كان لها نفع، وهذا من كيد الشيطان ومعرفته بالسنن، وههنا ملاءمتها مع المحل بختمها بختم: (عليك ليل طويل فارقد)، فهي تتلاءم مع الزمان –"عليك ليل"– ووتتلاءم مع النفس –"فارقد"–.

هذا الفعل الشيطاني لا بد من هزيمته، وهزيمتُه إزالتُه، وهذا ككل الشر، وشرط هزيمته هو حصول التكافؤ، وهذا الشرط كثيراً ما يغفل عنه العاملون، إذ يظنوا أن مجرد وجود الفعل كاف لتحقيق الفعل، وهذا خطأ منتشر في عقول المسلمين في الشرعيات كثيراً كما هو منتشر في الكونيات فيما يتعلق بالعمل لدين الله تعالى وتحقيق النصر والهداية، والتكافؤ لابدّ له من التتابع حيناً كما لا بد له من التنوّع والتركيب حيناً آخر وقد يحتاج إلى الأمرين –التتابع والتركيب–، كما حصل مع الرجل الذي شكى للنبي صلى الله عليه وسلم استطلاق (من الإطلاق والإنفلات) بطن أخيه، فأمره النبي صلى الله عليه وسلم أن يسقيه عسلاً، فسقاه فلم يشف، ثم عاد شاكياً، فأمره بالزيادة وهكذا حتى حصل المقصود، فبمجرد جرعة من عسل لا تكفي لبعض الأمراض بل لابدّ من التكافؤ، فالبعض يظن أنه بمجرد لعقة من عسل لابدّ من الشفاء لقوله تعالى: (فيه شفاء للناس)، بل أن بعض



الأمراض لا يكفي العسل لوحده، كما قال سلفنا قديماً –ومنهم ابن القيم في الطب النبوي–: إن الأطعمة غير المركبة ينفع لأمراضها الأدويةُ غير المركبة، لكن الأمراض المركبة لابدّ لها من الأدوية المركبة، فبعض الأمراض لا ينفعها العسل لوحده، إذ لابدّ من التكافؤ في شيئين: الكمية والنوع، وهذا الذي عينته بـ "التتابع والتركيب"، فهذا النائم لم ينفعه أن يذكر الله تعالى لحلّ كل العقد بل احتاج إلى التنوع والتتابع، فالعقدة الأولى أزالها الذكر، والثانية لابدّ لها من ملائم مكاني وهو الوضوء، والثالثة لم ينفعها إلا الصلاة، وفي العمل الجماعي لابد من هذا الأمر وتذكُّره ودليله حديث الذين آواهم المبيت إلى الغار فلم ينفعهم إلا الدعاء بصالح أعمالهم، ولما ينجهم دعاء واحد منهم، بل دعوا جميعاً، وكل واحد حقق من الفرج بمقدار دعائه، و لم يقع الفرج الكلي إلا بدعائهم جميعاً، فإن هذا هو الملائم لما هم فيه، فهذا القانون والسنة لا يجوز أن تغيب عن أذهاننا في الجهاد والدعوة والدعاء وأي عمل من أعمال الدنيا أو الآخرة، والإنحراف في هذه القاعدة هو الذي يوقعنا في جهالة فهم قدر الله تعالى من جهة وجهل وعود الله تعالى وشرعه من جهة أخرى، فتكثر الأسئلة: لِمَ لَمْ تقع هذه النتيجة وقد حققنا شرطها؟، والصواب: أن سنة الله تعالى جارية بأن الفعل لابد من وقوعه إن تحققت شروطه، لكن هذا السؤال ينتج بسبب جهالة ما هي الشروط، فليس مجرد الدعاء يحقق الإجابة بل لابد من التكافؤ كما تقدم في حديث الثلاثة الذين آواهم المبيت إلى الغار، وليس مجرد الجهاد يحقق النصر بل لابد من التكافؤ، ومن شروط التكافؤ هو معادلة الموانع، لأن القوة الكافية هي سلامة الفعل وعدم وجود الموانع كما قال ابن حزم رحمه الله تعالى.

فهذا الذي انحلت عقده كلها ووقع المطلوب صار هذا الفعل سبباً لفعل آخر لقوله صلى الله عليه وسلم: (أصبح نشيطاً طيّب النفس)، وهكذا تتوالى الحياة مركبة، كل فعل يحتاج إلى ما قبله، وكل فعل يحتاج إلى شروط في نفسه، وكل فعل يحتاج إلى شروط تحيط به وتواكبه، ولذلك لا يقال اليوم: لِمَ لا ننتصر؟ ففي هذا السؤال عماية عن تاريخنا الذي ورثنا نتائجه، نتائج أفكار منحرفة وأعمال ضالة وكسل أحاط كل جوانب العمل أو أغلبها في حياة أمتنا. وفيه عماية عن شروط النصر الذاتية وفيه عماية عن الشروط الموضوعية التي تحيط بنا. كما لا يجوز لنا أن نسأل عن عمل صالح لا يحقق النتيجة النهائية، لأن النتيجة النهائية هي ثمرة لتجمع أعمال طويلة لم تكن وقتها كافية لإظهار النتيجة، فالشجرة العظيمة لا يتلفها قضمة نملة صغيرة، لكن هذه القضمة هي الوحدة الأولى لانهيار الشجرة فهذا النائم لا يسأل: ماذا سينفعك الذكر إذ لا يحل عقدك كلها؟ لأن الذكر هو اللبنة الأولى لإزالة هذه العقدة.

هذه هي حكمة الحياة وهذه سننها، ومع الفهم لدين الله تعالى وحرقة التجارب تستقر الحكمة في القلوب والعقول، ويبقى أمر: هل يئس الشيطان من أن يعقد على رأس كل نائم، وفي كل ليلة؟ الجواب معروف، لكن لِمَ ييأس أهل الإسلام من محاربته في كل صباح وكل يوم وكل لحظة؟ هذه هي المعضلة. كل يوم وفي كل لحظة أنت مدعو للمجاهدة والصبر والذكر والثبات والتذكر والتفكر والتعلم، (فإذا فرغت فانصب).





الحديث الرابع عشر

عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (يستجاب لأحدكم ما لم يستعجل ويقول: دعوت فلم يستجب لي).

كما أن الأمور الكونية لا تقع إلا بشرط التكافؤ بين المقدمات والنتائج، لابدّ من عامل الزمن كما نرى في نمو الخلق من إنسان وحيوان ونبات، وكما نرى في تحقق الشفاء للأمراض والجروح، فكذلك الأمر مع الأمور الشرعية، فإنه لابدّ من التكافؤ بتتابع الفعل، والتتابع لا يقع إلا مع عامل الزّمن، فوضع آلاف الأطنان والمكاييل من المياه دفعة واحدة على النبتة الصغيرة لا يصنع منها شجرة باسقة يانعة، بل لابدّ من التتابع السُّني، ويفسد هذه السنة العظيمة مرض الاستعجال، هذا المرض الذي إن جمع مع مرض اليأس يصفان كل هزيمة وفساد.

العاملون لدين الله تعالى من مجاهدين وعلماء ودعاة هم أحوج الناس لبصيرة السنن، والكثير من الشرعيات قد فقهها هؤلاء هذه الأيام لكن حاجتهم إلى سنن النفس والإجتماع والنصر والهزيمة والفعل هو في العدل من حاجتهم إلى ما يحقق حب الله تعالى من خلال أمره، فأمره يحقق الحب الإلهي وقدره يحقق الوعود (وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب).

يظن الكثير من العاملين لدين الله تعالى أن عالم الغيب تحققه يقع من خلال القدرة الإلهية دون اعتبار لهذه السنن، إذ يحسبون أنَّ السُّنن قانون خاص للحياة الدنيا وللأرض دون الغيب والسماء، ولعمر الحق هذا انحراف شنيع، فإن اللع تعالى قال: (إن ربّي على صراط مستقيم) إذ مقتضى هذا أن لا يقع شيء إلا من خلال سننه وسببه، فربنا خلق السماوات والأرض في ستة أيام وهو القادر على أن يخلقها بكلمة واحدة وهي –كوني– لكن كل شيء خلق من خلال سننه، وتلك الأيام في طولها الزمني ليست كأيام الأرض كما هو معلوم من كتاب الله (و إن يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون) وصعود الملائكة بالأمر في أيام طول اليوم فيها خمسون ألف سنة كما قال تعالى: (تعرج الملائكة والروح إليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة) مكان هذا الذكر لطول الأيام مقدمة لقوله: (فاصبر صبراً جميلاً، إنّهم يرونه بعيداً ونراه قريباً) والمناسبة بينهما واضحة في ما نحن فيه لمن تفكر فيه والحمد لله رب العالمين. ولذلك لا يتحقق شيء إلا من خلال سننه، وهذا الإنسان خلقه الله في السماء من طينة الأرض وجرى ما جرى له في السماء من ابتلاءٍ كشف حقيقته وضعفه ومن عدوه وماهي مداخل هذا العدو فيه، كل ذلك لتجري الأمور من خلال سنتها، ومقتضى الحب من الإحسان لا يقع إلا من خلال السنة كما أن مقتضى البغض من الإهلاك لا يقع إلا من خلال السنة حتى لو وجد الموجب، وتأمل قوله تعالى في سورة النحل: (و لو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ما ترك على ظهرها من دابّة ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى، فإذا جاء أجلهم



لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون) فالموجب للعذاب من الغضب الإلهي بسبب المعاصي قد وقع ولكن تـأخر العذاب حتى تأتي سنته، وهذه الآية هي في نفس السورة (أي النحل) التي فيها قوله: (إنما أمرنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون)، فدل على أن الفعل الإلهي لا يقع إلا من خلال السنة، ومن جهْلِ الكفرة بهذا جعلوا التأجيل وعدم وقوع الفعل دليلاً على عدم استحقاقهم له فقالوا: (لولا يعذبنا الله بما نقول) وقال الله عنهم: (ويستعجلونك بالعذاب ولن يخلف الله وعده)، وهذه المعاني الباطلة التي جعلت إقبال الكفار على المعاصي واستحقاقهم بها هي التي تقع في قلوب المسلمين وتدفعهم لترك الصالحات كما في هذا الحديث –حديث الباب– وهو أن أحدهم حين يدعو ولا يرى سرعة الإجابة يترك الدعاء والعمل، وقريباً منها هو الذي وقع في قلوب المنافقين وفي غزوة أحد فقالوا: (لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ههنا) فإن فيها معنى " لو كنا على الحق لما تخلف النصر عنا " وإن كان هذا المعنى ملحق لا الأصلي، والقصد أن الفعل لابدّ له من سنة ومنها ظرفُه التاريخي لوقوعه، وتأخُّره لا يدل على عدم وجوده فالثمرة قوة كامنة في الشجرة حتى قبل ظهورها، وحين تبدو لا تخضر كزهرة تامة، والزارع يفهم ذلك كله ولا يترك العمل لخفاء الثمر أو لعدم نضجه بل يرعاه دائماً ويرقبه وهو موقن بوصوله إلى مطلبه يوماً، وهكذا العامل لدين الله تعالى فإنه ليقينه على الوعود الإلهية يرعاها وهي في علم الغيب وعداً ثم يرعاها وهي تنمو حتى تصل لكمالها كالدعاء، فإن المر يدعو ربَّه وبالدعاء يكون الإجابة لوعد الله الذي لا خلف فيه (و قال ربّكم ادعوني أستجب لكم) (وإذا سألك عبادي عنّي فإنّي قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان) ثم يرعاه بالزيادة والإجتهاد وكثرة السؤال وتحري أوقات وأماكن القبول حتى يصل إلى النهاية وذلك بوقوع الوعد على الوجه الذي رجاه السائل لربه، ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث: (يستجاب لأحدكم) ثم قال: (يقول دعوت فلم يستجب لي) فأين الإجابة إذاً؟، الجواب في مثال حصول الولد بالنكاح، فإن الولد يكون بالنكاح، والمستعجل يقول: أين الولد؟ فالمرأة لا ترعى الجنين لعدم رؤيته فيخرج سقطاً قد لا تراه وتظنه دم حيض والحق أنه استجيب له، لكن استعجل فبالتالي كان كمن لم يجب له ابتداء لعدم الإكتمال ولو بقي راعياً للإجابة الأولى لحصل المقصود بكمال القدر الإلهي المحبوب للإنسان، كما تقدم مثال الثلاثة الذين آواهم المبيت إلى الغار، فلو قالوا: لم يُستجب لأولنا لأنهم لم يخرجوا بداعئه وإن كان حصل الإجابة – فلو تركوا الدعاء لما خرجوا، فهكذا يستجاب له وإن لم يقع، فإن واصل وقع وإلا لم يستجب له، وهذا هو معنى الحديث: يستجاب لأحدكم إن رعى دعاءه وإلا فإن الإجابة الأولى غير كافية لحصول المقصود، وكذلك تأخر الإجابة قد لا يكون بسبب الحاجة للرعاية ولكن لا بدّ لهذا الفعل من زمن ملائم لسنة الله فيه كما وقع مع يوسف عليه السلام، فإنه رأى رؤيا، ولحصول الرؤيا كان لابدّ لهذا الفعل من مقدمات زمنية وفعلية طويلة ليقع التأويل، والله لا يجري شيئاً في هذه الدنيا إلا من خلال السنن إلا ما يقع من المعجزات والكرامات وهي خلاف العادة، – ولو شئت لبسطت القول وقلت: حتى المعجزات والكرامات تقع من خلال السنن ولكن شرح ذلك يطول والكل مجمع أن الحياة جريانها على غير المعجزة والكرامة –، فالداعي يرى أن دعاءه الأول لم يجب، وإن



كان في الحقيقة قد أجيب فبترك الدعاء لباقي ما هو محتاجه فحينئذ لا يقع ما يريد لتخلف السبب وهو الدعاء، وهذان المعنيان هما على معنى واحد في ما نحن فيه من فهم عالم الغيب والوعود الإلهية مع الأفعال، كنصر المؤمنين واليسر بعد العسر والرزق بعد الفاقة أو قلة ذات اليد وغير ذلك من وعود إلهية مبسوطة في الكتاب والسنة.

ومن عجائب ما يراه المرء الناظر في سنة المصطفى صلى الله عليه وسلم هو اجتهاده صلى الله عليه وسلم في الدعاء يوم بدر اجتهاداً شديداً وأبو بكر الصديق يقول له: "كفاك مناشدتك ربك، فإن الله منجز ما وعدك" وأبو بكر لم يعلم بالوعد إلا من خلال هذا الداعي العظيم –رسول الله صلى الله عليه وسلم–، فهل أبو بكر ذاكر لأمر نسيه رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ – وهذا ليس ببعيد لجواز نسيان الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم– ولكن ليس هذا هو الواقع– مع جواز وجوده كوناً– وإنما الواقع هو حاجة الوعد للمكاثرة والمتابعة حتى يتحقق، ورسول الله صلى الله عليه وسلم أعلم بهذا من أبي بكر، فأبو بكر نظر إلى الوعد بإطلاق ورسول الله صلى الله عليه وسلم رأى ما يجب عليه من حقوق لهذا الوعد، وما يحتاجه هذا الوعد حتى يقع، وهو وعد عظيم يحتاج إلى اجتهاد ملائم له حتى يقع، مع أن في هذا الحديث فضيلة عظيمة للصديق وهي شفقته على رسول الله صلى الله عليه وسلم من قيامه بهذا الإجتهاد الملائم لوقوع الوعد بالنصر، ولكن هيهات أن يترك الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم حق هذا الواجب أو أن لا يشارك فيه بالنصيب الأوفر وذلك بالدعاء والإستغاثة في طلب النصر.

هكذا المجاهدون والعلماء والدعاة والعبّاد ترقب قلوبهم البوادر ومطالع الوعود فيرعونها مع غفلة الناس عنها أو استهزاء المنكرين لها، كاستهزاء قوم نوح به وهو يصنع السفينة على اليابسة، ولكن هم يفهمون فهم القلوب الزائد عن العلم بالحد الشرعي كما قال تعالى عن سليمان تفضيلاً له على أبيه داوود عليهما السلام: ﴿ففهّمناها سليمان وكلاًّ آتينا حكماً وعلماً﴾ وقال: ﴿و لقد آتينا داوود وسليمان علماً﴾.

ليتذكر العاملون سنن السماء والغيب وليرعوها كما يرعون سنن الأرض فإن لهم شأناً معها، وليتذكروا أن رسول الله دعا ربه شهراً كاملاً لينج الله بعض أصحابه حتى استجيب له، ودعا في مكة ثلاث عشرة سنة حتى تحقق أول النصر بهداية أهل المدينة من الأنصار وجاهد عشر سنين حتى فتح مكة، فهذه ثلاث وعشرون سنة كاملة حتى تحقق الوعد، وعندما دعا على قوم مضت سنة الله في غير ما كان يدعو به رسول الله صلى الله عليه وسلم لوجود موجب آخر أنزل الله عليه –﴿ليس لك من الأمر شيء﴾– كما في سورة آل عمران ومن تأمل تمام الآية في قوله: ﴿أو يتوب عليهم أو يعذّبهم فإنّهم ظالمون﴾ علم حقاً ما نحن بصدده، وعندما دعا ربه أن لا يجعل عذاب هذه الأمة بالقتال بينها لم يجب الله لدعائه لجريان القدر بخلاف ما يريد رسول الله لأمته وما يحبه لها.

ولولا أن الأمر مع هذه الأبواب أمر إشارة وتنبيه لكان الشرح طويلاً، والله يغفر لي ولإخواني، وهو الهادي إلى سواء السبيل، وما ضياع الأعمال إلا بالاستعجال – ﴿ولكنّكم تستعجلون﴾.





الحديث الخامس عشر

عن أنس رضي الله عنه قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: (إنّما الصّبر عند الصدمة الأولى).

من فوت البدايات لم يدرك النهايات إلا بمشقة زائدة، ذلك لأن الأمور لا تؤتي ثمارها إلا في ما يلائمها، وبالإدلاج –وهو المسير مبكراً– يبلغ المرء مراده، وإلا فإن نفسه قد تنقطع ولا يبلغ، والبدايات لا يقوى عليها إلا من له رشد لا يتيه عند الفجاءات، فالصدمة تقذف في النفس الهلع والإضطراب، وأهل الرسوخ لهم إفاقة، وعندهم ثبات في العقل والنفس فلا تعميهم الفجاءات عما يجب عليهم حفظه وعمله، وهذا رسولنا الحبيب صلى الله عليه وسلم لو تاه عقله يوم الحنين و لم يصمد ثبات الجبال الرواسي منادياً: (أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبد المطّلب، اللهم أنزل نصرك) (وقد أرجع فضل الثابت في موطن الصدمة إلى نبوة صادقة وإلى نسب عريق فالنبوة رشد وهداية والنسب العريق يمنع فعل العار من الهروب، وهذا شأن الحق الكامل وذلك في اجتماع الفضل في إناء من الفضل يناسبه لما ردَّهم إلا البحر كما قال بعضهم، وسقوط الناس لا يكون إلا عند بداية الملمة فيتيه عقله ويضطرب نفسه ويحار عن وجه الصواب فتكون حينئذ للعدو عليه صولة الإنتصار والعلو، ولذلك مدح الفاروق عمر رضي الله عنه الروم بقوله إنهم: " أسرع الناس إفاقة بعد مصيبة "، ومن كان هذا شأنه مع تحضير واستعداد لم تهزه المصائب و لم تعمه الفجاءات، وأما الأمة التي لا تصحو إلا بعد أن طارت الطيور بأرزاقها وبلغ غيرها بعيداً في الشوط فإن اللحاق عسير إن حصل وذلك بتقطع شسع النعال ولهث الأنفاس ودفع ضريبة الكسل والعجز، وقد دلت الحياة أن العدو إنما يرمي بكل قوته بالصدمة الأولى ليحقق الإنتصار السريع واستغلال عامل الفجأة فإذا وجد من يصبر له ويتلقى الصدمة الأولى بثبات انتكس وخاب، وهذه قريش أرادت تلك الضربة القاضية على المدينة ومن فيها من المسلمين بقيادة النبي صلى الله عليه وسلم فلما ثبت لها الأصحاب بتبيت الله لهم ارتدوا خائبين وحينها قال النبي صلى الله عليه وسلم: (الآن نغزوهم ولا يغزونا)، وذلك بأن قوة الإنطلاق قد ضعفت في قريش وتحولت تلك القوة إلى جهة النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه، وتلك سنة الله تعالى في التداول.

لقد نامت أمتنا كثيراً، نامت حتى انهارت قيمتها، ونامت حتى سبقها الغير في الإعداد والعتاد، فلما أصبحت وإذا طوارق الشرق حطت في بيوتها، وبعد سنين من الغزو وثبات الكفر في الديار صار البعض يتحدث عن " صحوة إسلامية "، وآخرون يتحدثون عن " الوعي "، وكل ذلك دليل على أن الخدر ما زال سارياً في البدن والنعاس في العيون، ومن تحرك فإنما يتحرك بارتعاش الألم، والصارخ فيهم متّهم بـ "إقلاق الأمن" و"فتان الوحدة"، وفي الأمة من المصائب ما لو حلت في الدواب لانتصرت ولكن هيهات، فما لجرح بميت إيلام.



حتى نعادل الغير فلا ينفع الآن أن نمشي مشيهم بل لابد من أن نسارع ونجد ونتعب، ونديم الصراخ المنـــذر المهتدي، ونعمل بلا كلل دون التفات لأهل النوم الذين حسنوا كل فساد، وأسبغوا الشرعية على كـــل ضـــلالة، فالتكاليف عظيمة ولا يقوى لها إلا العظماء.

الصبر هو النصر والظفر، ولا يتحقق إلا بالإستشراف، وذلك بقراءة الدلائل الأولى والتعامل معهـــا قبـــل أن تينع، ولذلك قال الله تعالى لنبيه معلماً وهادياً: (و إما تخافنّ من قوم خيانة فانبذ اليهم على سواء) وهذا الصديق الأكبر أبو بكر رضي الله عنه يعالج الردة في منبتها، والفاروق يطلب من الإمهال، والصديق يأبى، ويقـــول: " والله لو منعوني عقالاً كانوا يؤدونه لرسول الله صلى الله عليه وسلم لقاتلتهم عليه " لأنه يرى أن ما وراء العقل –و هو حبل رقه يُقاد به الجمل– يرى أن وراء هذا الشر ما هو أكبر منه، فقطع الشر قبل استفحاله هو عـــين الـــسياسة والحكمة، فإنه إن ترك قوي واشتد أمره وصار عصياً عن الإزالة، وهذا ما شكى منه علي بن أبي طالب رضي الله عنه لما طالبه من طالبه أن يقتص من قتلة عثمان بن عفان رضي الله عنه وقد صاروا كثيراً ولهم المنعة والقوة، فـــإن معالجتهم بالقوة حينئذ مفسدة كما كان معالجة المنافقين في أول الإسلام في المدينة مفسدة كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: (لو قتلته (أي كبير المنافقين) حينئذ لا حمّرت له أنوف – ولقال الناس: إن محمّداً يقتل أصحابه–).

إن الذين يدعون مهلاً إلى إيقاف الجهاد حتى تتربى الأمة –زعموا– هم في حقيقة الأمر ودون أن يعـــوا إنمـــا يتركون للباطل أن يُقّوي نفسه ويرمي بجرانه في القلوب والنفوس أكثر وأكثر، ولو علم هؤلاء القوم أن ما يقولونه هو عين ما يحبه الأعداء لما قالوا هذه المقالة الشنيعة، فها هي دولة يهود اليوم حين نركن تحت دعـــوى الإعـــداد والتربية قد صارت إلى أمر لا يعلمه إلا الله من القوة، وإزالتها يكلف الكثير من الثمن والقوة والدماء والرجـــال، ولكن في بدايتها كم كانت تحتاج حتى ينتهي أمرها ولا يكون لها الوجود؟؟ ولو قال أهل أفغانستان عندما غزاهم الروس هذه المقالة وتركوا الباطل يتجذر فهل سيكون أمرها أبعد من حال الشيشان؟! واليوم أمريكا في العـــراق، ومن قرأ بعين الدين والتقوى لا بعين الهوى والدنيا علم صدق المقال على الحال والله الهادي، ومن يضلل فما لـــه من هاد.





الحديث السادس عشر

عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إنّ حقاً على الله أن لا يرفع شيئاً من الدّنيا إلاّ وضعه).

إن الكمالات في الخلق مؤذنة بالنّهايات، فحين تأخذ الأرض زخرفها ويبلغ في الناس الوهم أنهم أسيادها المتحكمون فيها تكون نهايتها (حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وظنّ أهلها أنّهم قادرون عليها أتاها أمرنا) وها هو رسول الله صلى الله عليه وسلم قد كمل له النصر وتم له الفتح فقال الله له: (إذا جاء نصر الله والفتح ورأيت النّاس يدخلون في دين الله أفواجاً فسّبح بحمد ربك واستغفره إنّه كان توّاباً) فكان في ذلك نعيه صلى الله عليه وسلم، وهكذا ليس بعد القمم إلا الأفول، وهذه السنة خير ورحمة لأهل الدين، فإن كان بهم البلاء واشتد عليهم فلا يكون بعده إلا الفرج، فإن الكريم يعقوب عليه السلام لما اشتد به الشوق إلى حبيبه يوسف وبكاه طويلاً شاكياً بثه وحزنه إلى الله تعالى، فلما بلغ الأمر كماله فابيضت عينه الطاهرة من البكاء الحزين كان بعد ذلك الفرج، وقال: (إنّي أعلم من الله ما لا تعلمون) ذلك أنه (لا ييأس من روح الله إلاّ القوم الكافرون)، وهؤلاء الثلاثة الذين خلّف الله توبتهم فلما ضاقت عليهم الدنيا وضاقت عليهم أنفسهم جاءتهم التوبة، وإن كان بهم نعيم مع الإيمان فإن الإيمان يمنعهم من العلو الذي يتم عنه القصم، كما دخل الحبيب المصطفى مكة على ناقته مطأطئ الرأس، إذ المناجل تصيب العوالي، كما السيل حرب للمكان العالي، فلا علو مع الإيمان، لأن البذاذة من الإيمان، وأما لأعداء الله فتلك سنة قاصمة، خاصة حين تجتمع هذه السنة مع أمرين هما من سنة الله تعالى مع أعدائه، سنة المكر وسنة البغتة، فلحوادث الزمان مكر في إلهاء الغافلين عن العواقب، إذ لا تفكر عندهم ولا اعتبار، والعجب أن كل الكفار على مدار التاريخ زعموا أنهم خارج هذه السنة، وأن لهم خصوصية الإستثناء من العواقب، لكن هيهات، وهاهم اليوم قالوا: "بنهاية التاريخ" بتحريض الغرور وإغواء الإستعلاء، ومكر الله بهم محيط، وبالبغتة حتى يتم الألم، فإن الإنتقال من حال إلى حال بلا تدرج مؤلم على النفس إن كان من نعيم كامل إلى جحيم وعذاب، فاللهم رحمتك.

إن هذه السنة هي مقتضى صفة ربنا –المتكبر–، فإن الله تعالى يأبى أن ينازع فيها، وهي قرينة العزة، فالرب يذيق العباد البلاء من التجوع والخوف ليعلموا أنه العزيز المتكبر.

وللمؤمن مع هذه السنة التي لو علمها الخلق على حقيقتها –لضحكوا قليلاً ولبكوا كثيراً– حال وعمل، ذلك بأن المؤمن العامل لدين الله تعالى لا يغره هرج الكفار ولا علوهم ولا استطالتهم ولا غلبتهم، وحين يتساقط الضعفاء كالفراش في نار فتنتهم ودنياهم، ويسيروا في ركابهم ظانين أن الأمر قد انتهى، وأن الأمة زالت و لم يعد



فيها قوة المجابهة والإعتراض يقوم الواثق بربه والعالم بسنته في التداول إلى الصدام والمدافعة لعلمه أن علوهم إلى زوال، وأن لكل شيء إذا ما تمّ نقصان، سنة تجري في الأمم والأشخاص والجماعات، فإن اجتمع مع هذه السنة قوله تعالى: **(و إن من قرية إلا نحن مهلكوها قبل يوم القيامة أو معذّبوها عذاباً شديداً كان ذلك في الكتبا مسطورا)** ازدادت بصيرته أن مكر الله تعالى يعمل عمله.

ومما يرعاه المؤمن مع هذه السنة أن لا يأمن العثار مهما بلغ علمه وحكمته وقوته إذ العثار متحقق ولا شك فلا رهان على شخص لا يكبو وعلم لا يخطئ وحكمة لا تطيش لأن كل ذلك كائن ولا شك.

وإن من حال المؤمن مع هذه السنة أن لا يحسد الكافرين على غناهم وعلوهم، فإن هذا فعل الجهلة الأغبياء كما كان حال البعض مع قارون، **(فخرج على قومه في زينته، قال الّذين يريدون الحياة الدّنيا، يا ليت لنا مثل ما أوتي قارون إنّه لذو حظّ عظيم)** والعجب أن هؤلاء لم يطلبوا معصيته ولكن طلبوا أن يكون لهم **(مثل ما أوتي)** لكن قاعدة أمنية الباطل إذ قالوا: **(إنّه لذوا حظّ عظيم)** فرد عليهم أهل البصيرة: **(و قال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن إمن وعمل صالحاً ولا يلقّاها إلاّ الصّابرون)** ووقع المكر **(فخسفنا به وبداره الارض)**، وها هو عمر بن الخطاب يبكي حين تأتيه كنوز الأرض لما يعلم ما وراء ذلك من الحوادث.

إنها البصيرة لما عليه يد الله تعالى في الخفاء من السنة والتدبير، بصيرة تضحك سعيد بن جبير في موطن الألم حين يقول للحجاج –لعنه الله–: إني لأعجب من جرأتك على الله وصبر الله عليك. وبصيرة تبكي في موطن الفرح كما أبكت عمر الفاروق رضي الله عنه حين هطول الغنائم. إنها بصيرة النفاذ إلى العواقب، تلك البصيرة التي تحقق الرسوخ على المبادئ والخوف من العواقب **(فإنّه لا يأمن مكر الله إلاّ القوم الخاسرون)**.

وهذا الحديث الذي بين يدينا أن ناقة النبي صلى الله عليه وسلم لم تكن تسبق، فجاء أعرابي على بعير له فسبقها فشق ذلك على الصحابة أن تُسْبَق ناقة النبي صلى الله عليه وسلم فحين ذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم هذه السنَة الربانية النافذة في الخلق قدراً لا إنفكاك لهم عنه، وهذا دليل على أن هذه السنة ليست في البشر أفراداً وتجمعات فقط بل هي في الخلق عموماً، فما من قوة إلا وستخضع لما هو أقوى منها، وما من جميل إلا وسيتضاءل أمام جمال أرفع منه، وما من ثمين إلا وسيكون مقوماً لما هو أغلى منه، وهكذا تمضي هذه السنة في اتجاه التحذير بعدم الغرور بما أنت عليه فتطمئن أن لا نهاية لها، ولها اتجاه آخر أن القمم لا تتناهى فلا ثبات، بل لابدّ من البحث دائماً عن قمة أخرى حتى يصل المرء إلى اليقين وإلى جنة الرحمن، فليحذر المرء من اليأس والقنوط كما يحذر من الغرور وكلاهما تفحم لمرض واحد لكن باتجاهين مختلفين.





الحديث السابع عشر

عن عروة بن البارقي رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة، الأجر والمغنم).

للأمم شعارات ترشح من عمق أعمالها، ترسمها عقيدة نافذة وأعمال دائمة، وكما أنه للأشخاص سمات من الخُلق، وألقاب وكنى فكذلك للأمم، شعارات ترسمها المشاريع الدائمة التي تستغرق الحياة، وهذه الأمة لها مشروع حياة يمتد معها عملاً إذا امتدت بها الأنفاس بقاءً، هذا المشروه هو "الجهاد"، مشروع يحقق لها الدوام والقوامة ويحقق لها الآخرة والشهادة على الخلق فيها.

لقد جعل الله في بعض ما خلق ميزات لها الخصوصية، كما جعل في الذهب والفضة خصوصية النقد والعيارية، فمهما غلت قيمة بعض المعادن وزاد ثمنها يبقى هذان النقدان لهما المعيارية دون غيرهما، وهذا الحديث يبين خصوصية هذا المخلوق الحبيب إلى نفوس هذه الأمة، إنه الخيل، لأنه عنوان الجهاد والغزو، وصار هذا المخلوق كذلك عنواناً لقيم إنسانية استحقت لقب "الفروسية "، هذه القيم تعبر عن قيم الفطرة السليمة من كرم وشجاعة وعلماؤنا إن تحدثوا كثيراً عن اثر الألبسة والأطعمة على نفوس أهلها فإن الأمر يحتاج كذلك إلى حديث عن أثر عشرة الإنسان لهذا المخلوق الحبيب، مع علمي أن بعضهم سيقابل هذا الكلام ببسمة إستهزاء واستهجان لكنها على كل حال خير من عشرة ابنائنا للكلاب والفئران وأمثالها مما يبدأ يغزو أمتنا تأثراً من سنن أتباع الشيطان.

هذا الحديث الجليل يبين مشروع الأمة الدائم، ذلك المشروع الذي يجمع لها خيري الدنيا والآخرة، أما خير الدنيا ففي المغنم، ذلك لأن المال قوام الحياة كما قال تعالى: **(و لا تؤتوا السّفهاء أموالكم الّتي جعل الله لكم قياماً)** فسمى المال قواماً للإنسان، وأما خير الآخرة ففي الأجر الذي تتحصله الأمة في هذا العمل، ولعله من الأمور البارزة هنا أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يعلم قط أنه دعا إلى تملك شيء من أشياء الدنيا، فلم يرغب باقتناء الذهب ولا الفضة ولا الدور ولا الضِياع ولكنه هنا حض على اقتناء هذا الخير من دنيا الناس وجاء في الحديث الحض على حبس هذا الملك والإعتناء فيه فقال صلى الله عليه وسلم: **(من احتبس فرساً في سبيل الله إيماناً بالله وتصديقاً بوعده فإنّ شَبَعَهُ وريَّهُ وروثه وبوله في ميزانه يوم القيامة)** ولذلك لأثر هذا المخلوق على حياة صاحبه وحياة الأمة التي ترعاه وتعتني به، ولست متبعداً إلى ما يحمل الحديث من معاني تتعدى إلى ما عرفه الناس من صناعات تقوم من مقام الخيل، أن من دلالات الحديث على أن الجهاد ماض فيجب إعداد عتاده ولوازمه قبل أن أنبه إلى "الخيل"هي عينها فيها فوائد عظيمة للأمة التي تعتني بها وترعاها، ولقد رأى الناس ممن خبروا الدول



التي تقدمت في الصناعات وخاصة العسكرية أن عنايتهم بالخيل ما زالت قائمة، و لم يزيلوها كما تفعل الأمم الجاهلة، هذا مع علمي أن مثل هذه الأمور لا تقوم إلا بعناية الأمة بمجموعها بهذا الأمر، فإن لم يكن كذلك لم يقو على هذا الحديث إلا أصحاب اليسار لما تحتاجه الخيول من رعاية مكلفة لا يطيقها أكثر الناس.





الحديث الثامن عشر

عن أسماء رضي الله عنها قالت: قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أنفقي ولا تحصي فيحصي الله عليك، ولا توعي فيوعي الله عليك).

حركة الغيب مع عالم الشهادة ظلّ له، تسير حيث سار وتقف حيث تقف، وعالم الشهادة مستور بستار السنن الكونية، يقف عندها بعض الخلق دون بصيرة النظر إلى أثر حركاتهم على هذا الكون، ومن أجل خرق هذا الستار نظراً وبصيرة أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ننظر دائماً إلى (فمن أعدي الأول؟!) فحين قال لهم: (لا عدوى) سألوا مستبصرين كما يروه من سنن جارية هي خلق الله فيهم فقالوا: فما بال الإبل تكون في الرمل كأنها الظباء فيخلطها البعير الأجرب فيجربها، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (فمن أعدي الأول؟!)، ذلك لأن الواقف على السنن دون النظر إلى يد الله تعالى وسنته في إجراء الأقدار وتعلق ذلك بما يحبه الله تعالى من أفعال الخلق وما يبغضه إنما هو قارئ للكتاب من منتصفه أو بادئ بالعد من غير الأول، والمؤمن هو الذي يعلم أن الله هو الأول سبحانه وتعالى فكل شيء منه جلّ في علاه والذين يفقهون على سنن الحوادث الظاهرة دون النظر إلى يد الله وعالم الغيب هؤلاء لا يعلمون إلا (ظاهراً في الحياة الدّنيا وهم عن الآخرة غافلون) كما قال تعالى في سورة الروم، وقد قال سبحانه وتعالى بعد هذه الآية ما ينبه إلى يد الله وحكمته في خلقه فقال: (أولم يتفكّروا في أنفسهم ما خلق الله السّموات والأرض وما بينهما إلاّ بالحق وأجل مسمّى (أي بسنن حكيمة قائمة على العدل، وإلى آماد ونهايات لها تعلق بهذا العدل) وإنّ كثيراً من النّاس بلقاء ربّهم لكافرون (بغفلتهم عن سنة العاقبة والنهاية لكل شيء)، أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانو أشدّ منهم قوّة وأثاروا الأرض وعمروها (ظانين أن هذا يحقق لهم الخلود ويمنع عنهم جريان السنن الإلهية إذ لا تعلق للإهلاك عندهم بما يحب الله ويبغض) وجاءتهم رسلهم بالبيّنات (بالتوحيد والشرائع) فما كان الله ليظلمهم (إذ أعطاهم ما أرادوا من سعيهم من قوة وعمارة واكتشاف) ولكن كانوا أنفسهم يظلمون (بترك التوحيد والشرائع حيث حق عليهم الهلاك)، ثم كان عاقبة الّذين أساؤوا السّوأى أن كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزؤون، الله يبدؤ الخلق ثم يعيد ثم إليه ترجعون) فهي يد الله سبحانه وهو الآخر، وكل شيء له تعلق بما يحبه ويبغضه وستبقى سنن التقلب والنهايات قائمة. وحديث العدوى ليس إنكاراً لسنة سريان المرض في الخلق بفعل المخالطة فهذا القول وإن قال به بعض السابقين إلا أنه لو قال به واحد اليوم لقيل له: هل تقبل أن تتزوج امرأة مريضة بالسيدا (مرض الإيدز: نقص المناعة)؟ أو هل تقبل أن تزوج عرضك لواحد مصاب به، حينها ستعرف جواب قلبه وعقله لا مناكفة لسانه.



والقصد أن يعلم الخلق أن المرء يستطيع أن يعلم حركة الغيب لما يجري على الأرض من أعمال وأخلاق، فإن كان في الأرض هداية فإن حركة الغيب هي امداد هذه الهداية كما قال تعالى: (و الّذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم) والله قال: (من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنّم يصلاها مذموماً مدحوراً، ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكوراً، كلاً عند هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربّك، وما كان عطاء ربّك محظوراً).

وفي الغيب حركة يرصدها أهل الإيمان وهي محط نظرهم، وأعظمها ما يقع في نفس الرحمن من فرح وحب ورضا أو غضب وسخط وبغض، وإذا أردت أن تعرف نفس الله تجاهك فانظر إلى ما في نفسك وقلبك عن الله، هل تحبه؟ هل أصبحت تطلب رضاه؟ هل أنت راض عنه؟ هل ظنك فيه حسن؟ هل تراعي أمره وتنفي معصيته؟ فالله يحب من يحبه ويرضى عمن رضي عنه، وهو عند حسن ظن عبده به وهكذا هي هذه القضية العظيمة، فالعطاء يقابل بمثله وكذلك المنع، والإحصاء يقابل بمثله وكذلك البسط، وما من فعل في هذه الدنيا إلا ويقابله حركة في عالم الغيب تكون آثارها في الدنيا والآخرة، وفي قوله تعالى عن بيعة الصحابة رضي الله عنهم للنبي: (يد الله فوق أيديهم)، وعن الصدقة أنها تقع في يد الله تعالى قبل يد الفقير، وعن نهيق الحمار أنه رأى شيطاناً وعن صياح الديَكة أنها رأت ملكاً، وهكذا يموج عالم الغيب بحركة الملائكة -يستغفرون للذين آمنوا- ويحضرون حلقات الذكر، و(ثبّتوا الّذين آمنوا) و(فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كلّ بنان) والله ينادي (إنّي أحبّ فلان فأحبّوه) وتموج الأرض بهذه الحركة نمواً (فينفخ فيه الملك) وإيجاداً لشيء لم يكن وبركة لموجود ضعيف ومَحْقاً لمغرور متكبر، فتهتز الأرض زلازل وبراكين عذاباً وابتلاءً، وها هو رسولنا صلى الله عليه وسلم يستأذنه ملك الجبال أن يطبق على أهل مكة جبليها (الأخشبين) ويقف هذا الغيب منتظراً إشارة من رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلو قال "نعم" لتحركت الأرض وزلزلت زلزالها، وحينها سيقول العميان "سحاب مركوم" ويشبهه من الوقوف على السنن الظاهرة وهي حق ولا شك، دون النظر إلى بكاء مظلوم أو دعوة مستجابة أو معصية واقعة، وأما أهل البصيرة فترتجف قلوبهم خوفاً من غضب الله ويفزعون للتوبة والصلاة كما هي سنته مع الآيات الكونية كالكسوف والخسوف وشدة الرياح وغيرها.

هكذا هي الحقيقة الكونية، فحين يتحدث الناس عن الأمطار وسنن نزولها وإصابتها للخلق، هم يصيبون في تفسير جريان السنة ولكن يقفون عن بلوغ الحقيقة، وهي السؤال عن الأولوية، وحين يفسرون حركة زلازل الأرض وينسون السؤال: فمن فعل أول الأمر؟، ولا يعني السؤال عن الأولية أي أولية السنن بالتكوين الأول للخلق فقط بل أولية كل خلق، فمن نفخ الروح في الحيوان المنوي؟ ومن أنشأ كل خلية فيها روح الحياة؟، وهكذا فكل ذرة في الأرض هو خلق جديد لابد له من أولية تنشؤه من العدم تدل على يد الله تعالى ثم تجري فيه السنن التي خلقها الله تعالى.



هذه الحقيقة الكونية الباهرة العظيمة لها التطابق التام مع حب الله تعالى وبغضه، حب ينشؤه طاعة من عبيده، وبغض ينشؤه معصية من أعدائه، حب ينشئ الحب والعطاء والإحسان، ومعه الإبتلاء ليزداد القرب ويحصل الطهر والغفران، ومعصية تنشئ العداء والمقت والمَحْق، ومعها الإبتلاء ليزداد الغرور والعلو والعلو ليتحقق الإيلام والمكر.

إن أردت صلة الله فَصِلْ من أمرك بصلته، وإن أردت حبه فأحب من أمرك بحبه، إن أعطيت الفقير ستجد أنك أعطيت حسنة في يد الله تعالى (لوجدت ذلك عندي)، وإن زرت مريضاً يتجد أنك وضعت قدمك على عتبة الرب (لوجدت ذلك عندي)، وهكذا بصائر المؤمنين يعيشون سنن الخلق والتكوين، ويعملون بقيم الحق وشرائعه، والغيب عندهم حاضر ويرجعون كل أمر إليه (قل كلّ من عند الله فمال هؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثا).

(أنفقي ولا تحصي) بل مادام أن يد الله تتلقاها فسترعاه (كما يربي أحدكم فلوه) حتى تأتي الحبّة كجبل أحد، فما إحصاء العبد إلا تضييقاً عليه لا على يد الله تعالى، وهذا قانون لعمر الحق هو سعادة البشرية في الدنيا والآخرة لو فعلوه، فالخير (لا تحصيه) بل افتح وكاءه ودعه يفيض (و يسألونك ماذا ينفقون قل العفو) والعفو ما زاد عن حاجتك، وما قتل الناس وأفسدهم إلا الحرص والمنع، فبه يقتل الناس بعضهم بعضاً، ويتباغضون ويتقاطعون، وبالعطاء ومنه التضحية يتم النماء والبركة لأن الحركة هي التي تصنع الحياة، وبالركود يقع المرض والموت والكساد.

نكتة: الكلاب تلد في البطن الواحدِ الكثيرَ، والخراف لا تحمل أكثر من اثنين، ولكن أين أعداد الكلاب في الأرض من الخراف، هل تعرف السبب؟

الجواب: "الناس لا يضحون بالكلاب".





الحديث التاسع عشر

عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: (إنّما النّاس كالإبل المائة لا تكاد تجد فيها راحلة).

الرغاء كثير والفعل قليل، وحين يزمع الناس على الركوب تكون للرواحل الصبورة الكلمة الفصل، فالبهرج لا يجدي في الأسفار والمشقات بل هو نافع لأهل الخمول والكسل ومحبّي الإقامات على الذل والعفونة، وشتان بين ما يوضع في القواعد والأساسات وبين ما يعلق في العوالي للزينة والمنظر، فللقواعد الحملة متون قوة وصبر وجلد، مع أنها للحمل وللزينة البهرج واللمعان والصوت العالي الجميل، مع أن العيون بها معلقة، ولكن العبرة بالنافع لا باللامع.

قوام الإبداع "بالتخصص"، هذه الكلمة المعاصرة الدالية على مقدرات خاصة وخبرات مميزة في باب من أبواب الحياة المعرفية والعملية، هذه القدرات والخبرات يصنعها الانقطاع لهذا الباب المعرفي والعملي، إنقطاع الإخلاص والتفرغ والبذل والتضحية ليصل إلى الإبداع وتحقيق المنافع اللازمة للأمة والجماعة، وإذا كان الأقدمون قالوا عن العلم: إن أعطيته بعضك لم يعطك شيئاً، وإن أعطيته كلك أعطاك بعضه، وأنت مع هذا البعض على خطر عظيم، فهذه قاعدة حق في كل العلوم المعرفية والعملية إذ يموت المرء وفي قلبه شيء من (حتى).

المشاركة في العلوم، أي الإصابة فيها بنصيب لا يصل لحد " التخصص " خير للمرء لكنه لا ينفع الأمة إلا بمقدار وضْعه في تحقيق الإبداع الذي ينتجه التخصص، إذ تحقيق المنافع الباهرة للأمة المتقدمة التي لها حق القوامة والشهادة لا إبداع من دون تخصص، لأن الإبداع هضم للسابق وبناء جديد يتم به السفر الطويل لتحقيق المهمات اللازمة.

المشاركون كثر، والأمة لا تتحقق إلا بمجموعها دون عزل لأحد مهما كان صغيرا أو ضعيفاً، لكن النفع الذي يتحقق به الإبداع ورحلة الشهادة والقوامة لا يكونان إلا للمميزين والمبرزين، وهؤلاء قلة ونُدرة بما يملكون من فطرة مميزة وإرادة حية قوية وجلد مثابر، وهؤلاء على الأمة أن ترعاهم وتوفر لهم سبل الحياة وما يحتاجون من أجل تفرغهم لما هم فيه وإلا ضيّعت الأمة نفسها بتضييعهم، كما أن عليها أن توفر المناخ الملائم لظهورهم، إذ الحقائق لا تظهر إلا في ميادينها، وجماعات الجهاد والعلم والدعوة والفكر في رحلتها الطويلة لتحقيق الشهادة مدعوة لرعاية هؤلاء واكتشافهم ووضعهم في بيئتهم الملائمة.



في الأمم والمجتمعات ليس مطلوباً تميز الكل ولا أن يكون الكل عالماً وقائداً وذكياً فلا يوجد أمة حققت أهدافها بمثل هذا الشرط، لكن شرط في القيادة ورعايتها، ونحن نلحظ أن مهمات الأمم تحققها الإرادة المميزة التي لها الفرادة عن بقية القوم والأمة، ومن خلال هذه القيادة –الراحلة– يسير القطيع وراءها، وبالتالي يحكم على الأمة من خلال هذه القيادة والرأس لا من خلال أفرادها الذين هم في عرض الناس، إذ الناس هم الناس، لا تكاد تجد فيها راحلة، ومن طلب غير هذا الأمر إنما هو طالب النار من الماء وهو من باب تعليق أمر على العدم لا غير، ورسولنا الذي يقول هذا الحديث هو الذي حمل أمته التكاليف، والقائد الفريد هو الذي يحقق الإمكان من الموجود لا أن يذهب في وديان التقريع ليسقط التكاليف، فشتان من يعلم هذا الحديث ويعمل به ويفهمه حق فهمه على وجهه الصحيح وبين من يستخدم عجز الكثير أو جهلهم ليرفع التكاليف عن الأمة ويعلق مشروع الأمة في السعي إلى أهدافها على غير شرط صحيح وذلك بأن يصبح الكل عالماً قادراً فيصبح الكل " رواحل ".

في رحلة الجماعات لتحقيق الشهادة بالجهاد والعلم والدعوة سيعاني المميزون كثيراً من عدم مستوى الكثير من القواعد فالخاسر هو الذي يهرب من التكاليف ويبتعد ساباً الجهل والتخلف أو العجز وعدم الإستجابة، وأما الذي تتحقق له مهماته فهو الذي يتعامل بواقعيه وإدارة حكيمة مع هذه القواعد، والذين يتصورون مجتمعاً أو جسماً كاملاً من الوعي والبصيرة مر يوماً على ظهر الأرض هم واهمون.

هكذا الناس كثير والرواحل قليلة لكن لابدّ من الرحلة والحال قد يكون كحال الرجل مع المرأة حين يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: **(المرأة كالضلع إن أقمتها كسرتها وإن استمتعت بها استمتعت بها وفيها عوج)**.





الحديث العشرون

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إذا أسند الأمر إلى غير أهله فانتظر السّاعة).

دوام أي أمر في تدبيره وإدارته، ونسق الوجود وجماله في نصب كل شيء في مكانه، والشيء اليسير ينمو على يد أهله العالمين به وبرعايته، وباليد الجاهلة تسقط الأمم العظيمة والجماعات الشاهقة القوية، فهذا هو مفتاح النجاح: **القيادة**.

ماذا عسى آلاف الأسود أن تفعل إن قادها أخرق أو جبان، إن قادها أخرق كان سعيها فساداً عليها وعلى الآخرين، وإن قادها جبان كانت قوتها كأن لا شيء، لأن قيمة الشيء لا بمجرد وجوده، إذ وجود الشيء بلا إثارة له كعدمه، ولا في وضْعِه في الفساد لأن ضرره حينئذ هو المحقق لا نفعه، والحياة قائمة على التنوع والتعدد ولا يصلحها إلا الاجتماع والتكامل ولذا لابدّ من قيادة تدير هذا الاجتماع وتوحد قواه، تستمد هذه القيادة قوتها من أفرادها واجتماعهم كما أن هذه القوى تتلاءم وتؤدي دورها تحت هذه القيادة وإدارتها، ومن غير هذه القيادة تتشتت القوى أو تتضارب، وحين تولى هذه القيادة ليد أخرق جاهل بما في يده فهذا يدل على جهالة القوى وفسادها، إذ تسلط الجهلة على رقاب الخلق يدل على أمور منها: أن هذه الجماعة هي صورة عن قيادتها كما أن هذه القيادة صورة عن الجماعة –(و كذلك نوّلي الظّالمين بعضاً بما كانوا يكسبون)– كما في سورة الأنعام، وهذه الآية يدل ما قبلها عليها حين قال سبحانه: (و يوم يحشرهم جميعاً، يا معشر الجنّ قد استكثرتم من الإنس، وقال أولياؤهم من الإنس ربّنا استمتع بعضنا ببعض) فإن الله تعالى عاب على الجن استخدامهم لحمير الإنسان مطايا وجنوداً، فصار الجن كثرة باستخدامهم هؤلاء الحمير، ولكن المصيبة كانت في هؤلاء الحمير حين رضوا هذا الذل والاستبعاد وجعلوا في ذلك متعتهم ورغباتهم وهكذا هي حقيقة الحياة بين المستكبر والذليل، فإنه لا يقبل أحد الذل إلا من هو مستمتع به ملائم لنفسه الخانعة الجاهلة، فالجماعة الجاهلة الخانعة هي التي تقبل هذا النوع من القيادة، ومن الأمور التي تدل على تسلط القيادة الجاهلة على الجماعة هو عجز هذه الجماعة وجبنها، فإن الساعي الجاهل يصل لمقصوده الذي يريده، أما العاجز العاقل فهو منكوس على رأسه لا ينفعه عقله ولا علمه، ونعوذ بالله من عجز العاقل كما نعوذ بالله من جلد المنافق، وحين يُسند الأمر إلى غير أهله فحينئذ تكون النهاية، فلا علم وعقل ولا قدرة ينفع هذه الأمة أو الجماعة، إذ العبرة بالإدارة لا غير، والذين يطلبون من هذه الأمة أن تنهض وقد تسلط عليها الفاسدون العملاء والجهلة فهؤلاء يريدون الحياة من رميم العظام، ويطلبون الجمر من الرماد، والأمم والجماعات لم تتحول إلى قوى فاعلة وحاضرة في عين التاريخ إلا من خلال القيادة العالمة العاملة القوية، وإنه من عجائب الأمر أن يرتب الإنسان حياته المالية والأسرية (فيما يظن) ويترك أعظم ما يحتاجه من



إحسان وتدبير ويتركة فاسداً، وإن أعظم ما يحتاجه هو قيادة مجتمعة التي يتعلق بها الأحكام العامة، فالأحكام العامة هي التي تضبط كل الأمور وتحدد قيم المجتمع والجماعات، فهل يستطيع المرء أن يأكل الحلال خاصاً في مجتمع قيمه العامة تسير وفق الجاهلية؟! أم هل يستطيع أن يضبط قيم أسرته وتربيتها في مجتمع محكوم بقيم الجاهلية؟! هذا ما ينبغي على الأمة أن تفهمه، وفي هذا الحديث سمى النبي صلى الله عليه وسلم الأمر والأمانة فقال: **(إذا ضيّعت الأمانة)** ولما سئل عن الأمانة قال صلى الله عليه وسلم: **(إذا أسند الأمر إلى غير أهله)** فدل على أن هذا الأمر هو الأمانة، فهو أمانة الله للعالم كما أنه أمانة الله لهذه الأمة، وحين نجمع هذا الحديث مع قوله صلى الله عليه وسلم: **(تقوم الساعة وليس على وجه الأرض رجل يقول: " الله ")** نعلم أن نمو التوحيد في العالم إنما هو بقيادة أهل التوحيد للعالم، وانتشار الشرك وغلبته في العالم إنما هو بقيادة الشرك لهذا العالم، فإن جمعنا هذا مع قوله تعالى: **(و ما خلقت الجنّ والإنس إلا ليعبدون)** ومع قوله: **(إنّا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال)** علمنا أن العبودية لله تعالى لا يستقر لها قرار إلا بقيادة العابدين لأمور هذه الحياة، **(فمال هؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً)**.

إن مصادمة المجاهدين لفراعنة العالم من أجل إزالتهم وتوسيد هذه القيادة لأهلها إنما هو من أعظم العبادات ذاتاً وسبباً، ذاتاً لعظيم أمر الله الجهاد ومافيه من إيمان واحتساب، وسبباً لما في إزالة هؤلاء المفسدين من الخير على التوحيد وأهله، بل وعلى العالم أجمع مؤمنهم وكافرهم.

(في هذا الحديث العلاقة بين الأرض كوناً مع السماوات وبين هذا الإنسان وعمله، فهل من مدّكر؟).

إن الجماعة المسلمة المجاهدة في سعيها لإقامة الشهادة على الخلق مدعوة لتوسيد الأمر في داخلها لأهله، ولا يجوز التفريط في هذا القانون تحت أي دعوى، لا المال هو ركن الإمامة ولا العشيرة ولا السابقة ولا مراعاة الخواطر، كل ذلك دعاوى فارغة أمام الأهلية، وإن أول مطلب إلهي للجماعة إن تحركت أن تولي الأمر لأهله، فإن الملأ من بني إسرائيل من بعد نبي الله موسى عليه السلام عندما طلبوا الإذن بالجهاد واستجاب الله لطلبهم، طلب الله منهم تولية طالوت، وقد احتجوا بحجج الباطل، فلا مال له ولا تقدمة في عشيرته، وبالتالي لا محبة له سابقة في القلوب ومع ذلك لم يراع الحق لهم هذه الحجج بل قال: **(إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة في العلم والجسم)** والعجيب أن نبينا محمد صلى الله عليه وسلم لم يقبل مطلب صحابته في تولية غير أسامة رضي الله عنه تحت دعوى صغر السن أو غير ذلك بل نظر إلى أهليته وقال: **(إن تطعنوا في إمارته فقد كنتم تطعنون في إمارة أبيه** (أي زيد) **وأيم الله إن كان لخليقاً بالإمارة)** هذا مع أن النبي صلى الله عليه وسلم كثيراً ما راعى نفوس أصحابه رضي الله عنهم في أمور كثيرة لكن هذا الباب لخطورته لا مراعاة للنفوس به.

إن شئت المال فخذ، وإن شئت الثياب فخذ، وإن شئت الجلوس في صدور المجالس فخذ أما إذا شئت الإمارة فلا لأنها: **أمانة ولا تعطى إلا لأهلها**.





الحديث الحادي والعشرون

عن عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما قال: (أمر الله نبيّه صلى الله عليه وسلم أن يأخذ العفو من أخلاق النّاس).

لا يَسَعُ الناس إلا السَّعة، إذ أرواح الخلق ضيقة تذهب بقليل المعاناة، والتفريق بين الجماعة المجاهدة والتكاليف التي تَحَمِّلْها لنفسها استعداداً منها لا تحمّل للمجتمع الذي تعيش في وسطه، فإن فعلت لابد أن ينقلب عليها المجتمع لا محالة، والله هو رب الخلق وله حق العبودية على هذه المجتمعات قال في كتابه: (إنّما الحياة الدنيا لعب ولهو، وإن تؤمنوا وتتّقوا يؤتكم أجوركم ولا يسألكم أموالكم، إن يسألكموها فيحفكم تبخلوا ويخرج أضغانكم) ولذلك لم يطلب الله شيئاً من عبيده إلا العفو، وهو ما زاد عن حاجتهم، سواءً كان من أموالهم أو أوقاتهم أو قواهم، ولا يمكن لجماعة مهما كانت على الحق في نفسها أن تحقق النصر في مجتمع من المجتمعات إلا إن كسبت قلب وروح هذا المجتمع، ولا يمكن أن يتحقق هذا إلا بأن يتيقن هذا المجتمع أن هذه الجماعة لا تصادم حياة الناس وكسبهم ودنياهم، فإنهم إن رأوا أن سبيل هذه الجماعة هو سبيل الخراب والفقر والخوف انفضوا عنها ولا شك، ولذلك كان من حجج قريش في عدم اتباعهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم أن قالوا: (إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا) والله أكذَبهم في هذه الدعوى وقال: (أولم نمكّن لهم حرماً آمناً يجبى إليه ثمرات كل شيء رزقاً من لدنّا) كما في سورة القصص، ولم يصدقهم فيها فدلّ على أن الدين هو الذي يحقق للناس سعادة دنياهم ولا يدمرها كما قال تعالى: (أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف).

هذه الحقيقة تخالف ما يطرحه البعض من تقديم دين الله تعالى على صورة توافق أهواء الناس وشهواتهم، إذ دين الله لا يقدم للناس إلا مع حقيقة الإيمان بالغيب وتحمل الأوامر الشرعية على حقيقتها حتى لو خالفت ما عليه والناس من رغبة في الشهوات والأهواء، ولكن لا يقدم دين الله للناس وهم يرون أصحابه يتوعدونهم بالذبح ويضيقون عليهم سبل الحياة، وكأن المجتمع لا يكفيه ما يفعله بهم طواغيت الأرض من استبعاد وإفساد وجعل المال (دولة بين الأغنياء منهم) حتى يأتيهم آخرون يريدون أن يقضوا على البقية الباقية عندهم وفيهم، وهذا الأمر يستدعي بيان مسألة مهمة وهو أن الجهاد لا يكون إلا ضد الملأ والطواغيت فهم الذين يوجه لهم سلاح القتل والقتال، وأما المستضعفون فلهم الحسبة، وهذا العمل الجليل (الحسبة) لا ينبغي أن تقوم به هذه الجماعات أصالة إلا بما يحقق رفع الظلم الذي تفعله الطواغيت ضد المستضعفين، وأما انشغال جماعات الجهاد الصلاة بعمل الحسبة فإن الحاكم العادل سيبغضه نصف شعبه إن عدل فكيف لو لم يكن حاكما بل كان متطوعاً، مع ما في عمل الحسبة من أمور هي أشبه بعمل القاضي وأحكامه وهذا قلما يتحقق من غير تمكن.



(إيّاك وكرائم أموال النّاس) هذه وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم لأمرائه ذلك لأن الرحلة طويلة والتضييق إن طال انقلب إلى سخط وغَضَب وبغضاء، بل الأمر ضربة وضربة، فواحدة تضحكهم وتفرحهم، وأخرى مما يتحملون يرون فيها أثر الجد والنشاط ليفزعوا لأخرى إن دعوناهم إليها مرة ثانية، وخير الأعمال أدومها وإن قل، وأما الذين يشقون على الناس فسيشق الله عليهم، وكفى بمشقة الله عليهم أن يعاديهم أهلهم وأمتهم.

الحياة الدعوية والجهادية ليست قصة هرمية تسير إلى نهاية مغلقة، بل هي بناء متوازن في أبعاده لأنه لا ينتهي إلى عقدة حاسمة، ولو كان الأمر كذلك لصح أن نرمي ثقلنا وثقل الناس في هذه العقدة الحاسمة لنرتاح بعدها، لكن الأمر ليس كذلك، بل هي عقد متتالية، وحلقة وراء حلقة، ولذلك فإن النبتّ لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى كما في الأثر، وأصحاب الأرواح السريعة يذهبون بسرعة، يأتون يرددون الكثير ويملؤون الوديان صراخاً ثم ينفضون سراعاً كذلك.

الرحمة على الخلق وتكليفهم ما يستطيعون وفتح أبواب الراحة والنزهة لهم تحبب فيك الخلق وتحبب فيك الخالق فإن الراحمون يرحمهم الرحمن، والأمر مع الجماعة هو أمر الرحمة والسعة نمشي مشي أضعفهم كما هو شأن المرء مع الصلاة، فإنه يخفف ما يستطيع في الجماعة وأما إن فرغ إلى خاصة نفسه وصلاته فليطل كما يحب، ثم ليت الناس في زماننا يقومون فقط بعُشر ما كان عليه الناس قديماً، إذاً لنجوا.





الحديث الثاني والعشرون

عن أسماء رضي الله عنها قالت: قال النبي صلى الله عليه وسلم: (المتشبّع بما لم يعط فهو كلابس ثوبي زور).

أجمل الكلمات ما دلت على الحقائق، وروعة البيان في كونه إبانة عن صدق الحال وإلا فهو لغو وباطل، وإن آلاف الكلمات لا تشبع جائعاً ولا تستر عارياً ولا تنصر مقاتلاً، والفساد ليس في وجود الشيء لكن قد يكون في العبارة المعبرة عنه، حينها يكون الوهم والكذب، ورحلة العاملين لدين الله تعالى هي رحلة إكمال أي رحلة الصدق والحقائق.

الشعارات والعناوين لا تحقق النصر ولا تدخل الجنان، فلو أن المشرك سمى نفسه موحداً وانتسب إلى إمام الموحدين إبراهيم ما كان ليدخل الجنة إلا بالحقيقة التي معه (و حصّل ما في الصّدور)، وإذا كان أمر الآخرة هو أمر الرحمة التي هي أوسع وأرحب من العدل فإن الدنيا هي جار السنن التي قوامها العدل، وهي لا تحابي أحداً (و لن تجد لسنّة الله تحويلاً) فإن ميزانها هو ميزان الحقائق، أي الوجود، فمن غير صخر لا تبنى البيوت، ومن غير رشد لا تدوم الجماعات، والذين يبحثون عن شعار جميل أو إعلام مبهرج دون اهتمام بالحقائق سرعان ما ينكشف الغبار ويظهر المستور.

(ثوب الزور) وثوب آخر هو أخوه، واحد يكذب به على الناس ويوهمهم بالحيلة اللفظية، وآخر يرتد على نفسه لأنه "متشبّع" فيتجشّأ من غير طعام إنما هو الهواء ولا شيء بعده، فهذان الثوبان المصنوعان من الكلمات، ومن الكلمات فقط ماذا عساهما أن يحققان من ستر العورات أو دفع البرد والمهلكات؟! وماذا لو صار عتاد المجتمع وقوامه هو الكلمات، يقتاتون بها ويتحاربون بها وعليها، وينامون على أنغامها ووسائدها، فهل لهذا المجتمع دوام أو تقدم؟!

جماعات الحق عمادها الصدق الذي به تحقق صدق انتمائها لدين الله، وبه تحقق احترامها لنفسها واحترام الآخرين لها، حينها يصبح لكلماتها قوة الحقائق، فالصدق لا مساومة فيه، فلا يجوز الكذب بحال على الأمة ولا على الإخوان وهذا ركن الحياة والشهادة على الخلق.

(ثوب الزور) يصنع الوهم الخادع في المرء فيجلس على جذع شجرة حطمة ويظن نفسه أنه يمتطي جواداً سابقاً، فيطلق صرخات المقاتل والتهديد، ويضع الخطط والمقررات دون وجود عمد المقدمات لها، وهو لا يقوى على نفخة هواء من خصم يتعامل مع سنن الحياة وحقائقها، ولذلك من واجبات أي جماعة وحركة أن تعي



واقعها، وأن تعرف حلقتها التاريخية، إذ الوعي على موطن رجلك في دورة التاريخ شرط تحقيق النصر الملائم للمرحلة، فالتاريخ حلقات، حلقة من حلقات الصعود أو الثبات أو الهبوط، ففي الصعود تحافظ على الاندفاع، وفي الثبات تحافظ على التوازن، وفي الهبوط تمنع الإنهيار، فمن الجهل الفاضح أن يتكلم أحد عن الفتوح -الجهاد الهجومي- وهو في حلقة إيقاف الهبوط والإنهيار، وتحقيق المطلوب من أي مرحلة هو النصر، فخالد بن الوليد رضي الله عنه في مؤتة حين انحاز بأصحابه محافظاً عليهم من الفناء إنما حقق النصر الملائم لواقعه، ولم يحققه إلا لوعيه على حلقته التاريخية حينئذ، وهذه هي لغة الحقائق لا "لغة الزور"، وهي التي تنفع حتى لو كانت مؤلمة وصعبة على النفوس وآمالها.

مع رحلة الجهاد والدعوة لنحذر من الشعارات الكبيرة فهي "أعلام زور" لا تثبت أمام الرياح والعواصف وتصبح أحمالاً ثقيلة على كاهل الجماعة والأمة، تعاني منها أكثر من معاناتها لأعدائها، لأن مطالبها كبيرة لأقوام يقابلها ويعادلها.

ومع هذه الرحلة لنحذر من الإنتفاخ الكاذب، إذ حاله حال "الحمل الكاذب" وهو عين "التشبع"، وهو انتفاخ ورمي عماده المرض والرهق لا الصحة والقوة.

مع هذه الرحلة حجر صغير خير من صراخ عال، وخيط عنكبوت خير من "ثوب زور".

ليأتي الناس إلينا وقد عرفوا ما لهم وما عليهم، وقد وعوا ما سيلاقونه وما سيقدمونه، فلا مخبآت مكتومة، ولا مفاجآت في طريق العمل والشهادة على الخلق، لأنه طريق معبّد مرسوم قوامه الصدق والأمانة.

في الحديث (حديث الباب) روعة البيان سامقة بجمال مثمر، وجذر قوي عميق، فأي جمال عظيم هذه في قوله: (متشبع) و(لابس ثوبي زور)، إذ الناس لا يعرفون سرك الكامن في بطنك، فادعاء المرء الشبع لا دليل للخصم يكذبه، ولكن هيهات إنما هو "لابس" وهذا أمره للعيان لا يخفى، فمهما ادعيت باطناً فإنما هو للعين مكشوف، إذ لا تقل "عندي" لأن الميدان سيكذبه، شئت أم أبيت.

ثم تأمل (ثوبي) لا واحد، وقد تقدم سره. والله أعلم.





الحديث الثالث والعشرون

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (سـددوا وقـاربوا واغدوا وروحوا، وشيئاً من الدّلْجة، والقصد القصد تبلغوا).

في الدوام مع القلة النجاح محقق، والحمل الكبير لا تعجز عنه قرية النمل، والجدُّ بنى سلاسل عظيمة من حجارة صغيرة لأرضه، يجمعها بجد يومياً من بعد صلاة الفجر وفي نفس طويل وأما الحفيد فعجز أن يبني بيت دجاج لأنه ينتظر أن يجمع مليون دينار ليبني قصراً عالياً في لحظة واحدة.

على أرجل ملفوفة بقماش مخرق مرقع، ودواب هزيلة، وصلوا إلى الصّين، وبسرج ليلية تعبة وأقلام لا يكاد يكمل الكلمة حتى يغمس في حبره، وعلى ورق مرة من جريد النخل وأخرى على حيوان كانت كنوز العلم تسير في حمائل الأطفال والعرائس، كل ذلك صنع على قاعدة: (القصد القصد تبلغوا)، وفي زمن "الكمبيوتر" والطائرات النفّاثة والسيارات السريعة ما زال الناس يرتكسون في مقاعدهم لأنهم يجلسون ينتظرون "اللحظة المناسبة" التي يتمنونها من "الفراغ" و"القوة" ليتحقق لهم كل شيء، فكانت النتيجة: **لا شيء**.

لعلك لا تملك قدرة توصلك وعلماً كافياً، لكن يكفيك: (سدّدوا وقاربوا) إذ الكمال وهمٌ في العقول لا وجود له في الأعيان، والذين ينتظرون الكمال إنما يقتاتون الوهم.

يقولون غداً، ففي غد يكون الفراغ الواسع الذي يمكن به أن تبدأ الرحلة، لأن اليوم ضيّق، وينسون أن غداً ليس فيه لحظة زائدة عما عليه اليوم، ولذلك إن كنت مشغولاً في الصباح فجدّ في المساء، (اغدوا وروحوا) إذ يكفيك ما عندك الآن مع قلته.

نم حتى يتعبك جنبك، واضطجع في ليلك ما استطعت وأحببت، لكنّك ستجد في نهاية الليل لحظة قبل الفجر تعطيها لعمل تبنيه فتجده أمامك كبيرا بعد ذلك.

كل شيء يمكن المساومة عليه، إن لم يعجبك العمل صباحا فاعمله مساءاً، وإن لم تستطع اليقين فيكفيك غلبة الظن، لكن إياك والتفريط في الدوام، بل (القصد القصد) فهذا إن فرطت فيه لم تبلغ ولن تبلغ مهما ملكت من القدرات. الدين عميق، وكذا الكون، والرحلة طويلة لأنه لا نهاية لها إلا بالموت فالعلاج الوحيد لهذه المعضلة هو أن تحمل الخفيف وتداوم المسير.

هذه قاعدة الإنجاز، وقاعدة النجاح، بل هي اكسير الثبات والوجود، وحين يتبارز الناس يكون للدؤوب الكلمة الفصل.



(شيئاً من الدلُجة) إذ النفس حال إقبالها، والجسم في لحظة نشاطه، والأرزاق لم توزع، و لم ترحل الطيور بعدُ بأرزاقها وحينها يكون القطاف من رأس الثمر، وهو أغلاه وأجمله وأغناه، ولذلك يكون "الشيء" مع قلتها أفضل من حمل بعير من "البقايا" والمخلفات، لأن روحها ذابلة وعطاءها ضعيف.

لا فرق بين الغدو والرواح لكن لا بد من "شيء من الدلجة" حينها تكون "بيعتان في بيعة" وللقط ثمن غـــالِ للحقوق بالبعير إذ هو المقصود.

في العمل: سدّد وقارب.

في الوقت: غدو ورواح وشيء من الدلجة.

في الإدارة: القصد القصد.

حينها يقيناً ستصل بإذن الله تعالى.

رحلة العاملين مع العلم والجهاد ليست مرحلة تقطع ثم نحط الرحال بل هي رحلة وراء رحلة، في العمل ومع المحبرة إلى المقبرة، وفي الجهاد (حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله)، ورحلة العابدين (حتى يأتيك الـــيقين) فما أطولها من رحلة لابدّ من قطعها، وما أرحم قائدها وراعيها: إنه **محمد بن عبد المطلب صلى الله عليه وسلم**.

بناء الجماعات غير بناء الأفراد، فالأفراد يبنون على قاعدة (كن في الدنيا كأنك غريب) فهو يعيش مقتنـــصاً اللحظة كالطير يمر على الماء فيأخذ حسوات ويسير، لكن مع الجماعات تبنى الكتائب كما تبنى الكتـــب، تـــبنى لتدوم، وترصّ بمتانة الثبات والدوام، وإلا فهي نسمة ذاهبة لا تقوى على مهمات الحياة وتكاليف الدين مع الأمم الأخرى، فالإتقان أساس ذلك، والتأمل العميق –(سدّدوا وقاربوا)– فهو بذل المستطاع مع العلم، وليس رمياً في الهواء ولا من وراء الغيب، بل بقياس الدقة التي هي أقصى قدراتك، وإلا فما تبنيه مجرد ركام حجـــارة لا تكـــن مغروراً، فالعلم يسبق العمل "سدّد وقارب ثم اغد ورح "، وأما الغادي والرائح في كل اتجاه لا يدري أين مذهبـــه ولا مقصده فهو راجع بخفّي حنين ولا شك.

حدّد وجهتك، اجمع الأدوات، ثم ابدأ المسيرة، وكلما كلّت رواحلك أرِحها قليلاً مع عين تَرصُـــد، وروح تتطلع إلى هناك: حيث (ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر)، فهناك تستريح.

نكتة: إن أعظم المعلومات والقدرات التي يجنيها الإنسان في حياته هي خلال الفترة الأولى من حياته، فهـــو يتعلم اللغة وروحها، ويتعلم أسماء الأشياء الكثيرة، كما يتعلم العجائب من حقائق الأشـــياء وماهيتـــها، ويـــتعلم الآداب والأخلاق، والكثير الكثير، ولو تفكرنا لوجدنا أن هذه الكمية الهائلة من العلوم إنما تلقاها بروية وهـــدوء وعلى قاعدة (القصد القصد) في تتابع يومي وفي كل لحظة، وبالصبر وعدم التواني، فهلا تعلمنا من هذه الحقيقـــة في تحصيلنا وحياتنا وجهادنا وسعينا؟!





الحديث الرابع والعشرون

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بمنكبي فقال: (كن في الدّنيا كأنّك غريب أو عابر سبيل).

محنة القلب مع الحنين لما فات وانقطع يدفعه الحنين للآتي، وحال الدعاة والعابدين والمجاهدين مع مملكة الدنيا وأشيائها إنما هو (لا يصلّينّ أحد منكم العصر إلا في بني قريظة)، وإن صاح بك صائح "الصلاة" فقل له: "الصلاة أمامك" وعلى دابتك سر "العَنَق" فإذا وجدت فجوة فنُص"[٢] ولا تقف على الأطلال باكياً ولا على ما حصلت مغتراً، فما في هذه الدنيا إلا "فانٍ وابن فانٍ"، والذكريات مكانها القلوب فإن نزلت إلى الأرجل صارت ثقال سفن معوقة.

ما تعطلت الإرادات إلا بالخوف على فوات ما في اليد شغفاً به، مع نسيان أن ما هو آت هو أجمل وأفضل، فالعناء محتمل إن كان في النهاية غنيمة وراحة، وشعثاء السفر غبار زائل تذهبه غسلة ماء واضطجاع جنْب الحبيب المنتظر ثم يعود مجرد ذكرى.

الباكون الحريصون على "منجزات" دعوتهم وجهادهم وأعمالهم وقد اطمأنوا إليها وتلاءموا معها (فطال عليهم الأمد) في ظلها فبردت جنوبهم إليها واهمون، فما هي إلا دنيا ذابلة، مع أن الطريق طويل والواجبات أمامهم، لكنه جهل "الإقامة" في ظل شجر بارد موقوت.

الهجرة حال دائم، واتخاذ الضيعة مرغب بالإقامة فكيف يلتقيان؟! فالمهاجر متخفف، حامل لمتاعه دوماً، أينما سمع هدفه طار إليها، أو واحة علم طارت نفسه لها شعاعاً، فكيف لعالم أو مجاهد أن يقيم والهيعات كثيرة والواحات دونها بيد.

"الاغتراب" همُّ المميزين في أزمانهم، في رحلتهم مع المعالي، وبخطأ يقترفونه دوماً هو محاولة الإقتراب من هذه الأزمان واجتناب دنياهم، فتزداد الآلام ويحصل الإفتراق، وحينها يكون المرض، ومع العابدين تكون "الغربة" علاجاً، فبينهم وبين أزمانهم علاقة يعرفون أنها "عابرة" لا تقيم، وأنها "غريبة" لا تتأقلم، يربطها الحنين إلى ما هو آت من الجنان ولقاء الرحمن، وإلا فحدثوني عن أئمة الزمان من الرسل وأتباعهم كيف قدروا أن يحتملوا جهالات عصرهم، وظلم قومهم، وضعف همم الخلق عموماً؟

اجعل بينك وبين كل شيء في هذه الدنيا مسافة في عقلك وقلبك ونفسك، لأنه الأروح لها إن فارقته، وأنت لابدّ مفارقه أو مفارقك، فالتعلق في الدنيا رأس الخطايا، وإن أول معصية في الأرض بين أبناء آدم عليه السلام إنما

---

[٢] وصف دفع النبي صلى الله عليه وسلم من عرفة إلى مزدلفة بقول أسامة رضي الله عنه: كان يسير العَنَق، فإذا وجد فجوة نص، وقال له في الطريق: يا رسول الله أتصلي؟ فقال: (الصلاة أمامك).



كانت بسببها والتنافس عليها، إذ يتصور الإنسان واهماً أنه لا يمكن أن يعيش بدون هذا الشيء من أشياء الدنيا، فيغلبه الهاجس المرضي كمجنون ليلى، ويسيطر هذا الشيء على روحه حتى تشربه كما أشرب بنو إسرائيل العجل، مع أنه لو تفكر قليلاً لعلم أن الكثير من الناس يعيشون بدونه، وهم في استغناء عنه، وهذا الذي قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم في الغنى وأنه ليس بكثرة العرض، ولكنه غنى النفس.

"الاغتراب" للعابد العالم والمجاهد ليس مرضاً ولا رهقاً يحمله، بل هو اختيار عقلي وقلبي، فهو ليس مقهوراً بزمن، ولا بوطن، ولا بعرض فيها، بل الزمن بالنسبة إليه رحلة عمل، فلا تشغله اللحظة إلا بمقدار ما ينجز فيها من عبادة فهو يسبح ربه ويسجد له ويجاهد فيه ويزداد فيه علماً وبصيرة، حينها يصبح الزمن هارباً وهو يلاحقه، لا حملاً ثقيلاً يرهقه وهو يهرب منه، وأما "الوطن" حيث حلت فيه أول تعاويذه فبالنسبة إليه رحلة ذكرى لوطن قادم فينتظره، له فيه أهلون هم ينتظرونه كذلك، فهو عابر سبيل ينظر ولا يحمل، ويتأمل ولا يثقل، ويلمس لكن رجله في الغرز سائرة لا تقيم.

غريب أو عابر سبيل: غريب حاضرك مع الدنيا، عابر سبيل مستقبلك إلى الآخرة.

غريب في ما أنجزت مع الدنيا، عابر سبيل إلى واجبك الذي هو آت.

وهكذا تتواصل الرحلة، لا ترهق بماض، ولا يثقلك حاضر، ولا تنقطع الآمال. إياك أن تنْدم أنك ضيعت وقتاً أو جهاداً في مكان ما، فتقول: عملت هنا فلم أقطف، وبنيت هناك ولم أُقِم، فهذه الدنيا مسارح عجيبة، فقد زرع رسول الله ثلاثة عشر عاماً في مكة وكانت الثمار في المدينة، ورمى علماء كثر البذر في أرض فحملتها رياح البركة إلى أرض أخرى وزمن آخر، فها هو ابن تيمية ينبت بذره الآن شجراً مثمراً عالياً، وها هو سيد قطب تجنى غراسه بعد موته، وتفكر في إبراهيم عليه السلام وهو ينادي (و أذّن في النّاس بالحج) في أرض قفرة، صحراء لا زرع ولا ماء، فأسمع الله الخلق أذانه واستجابت له أمم لا يعلمها إلا الله بعده، وها هي العيون تشرئب إلى ذرية إسحق والأسباط، والعين تكاد تميل عن هذا الرضيع وأمه في البيداء، إسماعيل وأمه هاجر، ولكن كان لكلمة الغيب فصل آخر، فالخير لا يضيع –أحصاه الله ونسوه–، فلا عليك أن لا تحصيه وهو في يد الله تعالى التي تنميه رحمة وقبولاً.

اهتم بنفسك أن تكون غريبا أو عابر سبيل، وأما شأن الأرض فهو فعل الرب: **(فأما الزبد فيذهب جفاءاً وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض)**، فهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: **(ما لي وللدنيا، إنما أنا كراكب استظل تحت ظل شجرة ثم راح وتركها)** والله يقول: **(ورفعنا لك ذكرك)**، و**(إنّ شانئك هو الأبتر)**. فالله يقول الحق وهو يهدي السبيل.



الحديث الخامس والعشرون

عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال الرسول صلى الله عليه وسلم "الأرواح جنود مجنّدة، فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف".

مِلاَط الوصول بين الركائب باتفاق الحِمْل، فإذا اتفق الهم سميت على وجه الوحدة وإلا فهي غبار ريح، والجنود لا تنبت من الأرض بل تجنّد بالحمل، فحمل من معدنه وحمل من صانعيه ويد صاحبه، وبناء الجماعات يتم ببناء أرواحها، وهي الهموم والغايات، فالعلم رحم بين أهله وكذا التقوى والجهاد، يتواصلون بينهم بالهدية والسلام والدعاء والحب، وبناء في أبدانها، فالميدان يجمع أهله حين تنصب الأقدام على طريق الهجرة التي لا تنقطع إلى يوم القيامة، وعلى طريق الإعداد الذي هو دين الله رغم أنف المخنثين.

(لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألّفت بين قلوبهم ولكنّ الله ألّف بينهم) والتأليف هو الجمع على وجه الجمال وروعة المعنى، فحين تتفق الحروف في اجتماعها على معنى يكون تأليفاً، وكذا الناس حين يجتمعون على هم واحد ومقصد متفق يكونون على ألفة ومحبة، وبذلك تقع مقاصدهم ويبلغون أهدافهم، ومخطئ من ظن أن هذا الحديث يتحدث فقط عن أمر قد قضي وانتهى والناس يعيشون على وضع لابد لهم فيه بل الحق أن هذا الحديث مع حديثه عن ذلك إنما يتحدث عن أثر ما يجنّد المرء فيه من تربية أهله له ومن تربيته لنفسه، فهي "مجنّدة" والتجنيد كالعلم الذي هو بالتعلم والصبر الذي هو بالتصبر، فما جند المرء نفسه له فهو جندي له، وبهذا يحدث اللقاء على وحدة الطريق والهدف، وقد حصّل الصحابة رضي الله عنهم أهدافهم لوعيهم العميق لما يحمل القائد من هدف ومقصد، وبالتالي صمدوا أمام محن الطريق لحبهم لقائدهم وحبهم المتبادل بينهم، وهذا عمر رضي الله عنه يقول: "ما رأيت أن شرح الله صدر أبي بكر فعلمت أنه الحق" وذلك في قتال الصحابة للمرتدين، وهذا مرجع يتعلق بأمر القلوب والأرواح لا كما يعلم المحجوبون بالألفاظ والشعارات الجوفاء.

الجماعة المسلمة جماعة محنة وابتلاء، ومكر أعدائها بها شديد –(و إن كان مكرهم لتزول منه الجبال) –، وتصفيتها من الدرن خلوصاً بها إلى الطهر هي سنة الله تعالى بها، فحالها كأنها على نار وشدة، ومن كان هذا حاله فلا يصمد إلا بحمل ثقيل من الإيمان والتقوى، وتدريب شاق على المهمات وخاصة ما يتعلق في داخل الجماعة نفسها، فالمرء حين يرى وجوهاً يعرفها ويألف بها ويأنس معها فإن نفسه تثبت وتؤوب إن أصابها الفزع، أما إن نظر فرأى وجوها منكرة لا يعرفها، ومختلفة متدابرة فإن الغربة تشتد عليه والمحن تتضاعف وحينها يقع المحذور من الفرقة التي هي رأس الشقاء والهزيمة، وقد وقع في زمن النبي صلى الله عليه وسلم من المحن العلمية والعملية الشيء الكثير، لكن حبهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم وألفة قلوبهم الطاهرة لقلبه الطاهر، وأنس أرواحهم الخالصة بذكرى الدار الآخرة مع روحه التي هي كذلك بل هي أعلاها وأسماها في ذلك، كانت هذه المحن تمر عليهم



فتزيدهم صلابة وقوة، ففي أُحد تجد الصحابة يشتدون بالإلتصاق من حول رسول الله صلى الله عليه وسلم في حال لو كان مع غيرهم لوجدتهم مجرد أشباح ذاهبة، وفي صلح الحديبية حيث الفتنة العلمية، فرسول الله صلى الله عليه وسلم بشرهم بالفتح، وفهموا من ذلك أنهم سيدخلون مكة هذا العام، فما أن عقد الصلح على صورة لم تخطر على بالهم، ورأوا فيها تنازلاً عن تولي المؤمن لأخيه، وتنازلاً عما عقدوا العزم عليه من الإحرام للعمرة، فثارت نفوسهم، واشتد الأمر عليهم حتى أن النبي صلى الله عليه وسلم أمرهم بالإحلال فلم تقو أبدانهم ونفوسهم على ذلك، وصار رسول الله صلى الله عليه وسلم غضباناً خوف هلاكهم من هذه المعصية، ثم لما خرج إليهم وحلق أمامهم وأحل من إحرامه، قاموا يحلون ويحلقون حتى يكاد الرجل يدمي صاحبه من الغضب، فمثل هذه المحنة الشديدة لم يكن ليثبت لها جند إلا إن أحبوا صاحبهم وتعلقت أرواحهم به لاتفاق الحال وأنس السمات مع السمات.

لابدّ من بناء خفي للأرواح، من تسبيح واستغفار وقيام ليل ودعاء بالغيب، ولابد من بناء عملي لها بالعلم والإعداد وبالهجرة، حتى تأتلف القلوب وتتعارف وتصبح " جنوداً " لا " غبار طريق "، وحتى يعرف الناس بعضهم بعضاً تعارفاً كمعرفة الإبن بأمه والأخ بأخيه والابن بأبيه، وبمثل هذه العلاقة لا تزيد المحن الجند إلا اتحاداً وقوة، فإن الأم لا تدع ابنها حتى لو أخطأ أو مرض أو ضعف، وكذا الأب والأخ، وهذه هي " صبغة الله "، وهي لا تذوب ولا تزول مهما تقادم عليها الزمن، فها نحن نرى على مدار التاريخ حب المحدثين لإمامهم أبي هريرة حباً خاصة ومثله لأمنا عائشة رضي الله عنها وأنس بن مالك، حيث تجتمع الصبغة ويتوارث أهل هذه " الصبغة " الحب جيلاً بعد جيل كما يتوارث الناس الأنساب، بل أشد، وكذا نرى حب العلماء لعمر وابن مسعود ومن سار على دربهم حباً خاصاً لاتفاق " الصبغة " التي يتوارثونها، صبغة تسري في الأرواح، وما من مجاهد يذكر أمامه خالد بن الوليد أو أبا عبيدة عامر بن الجراح وأمثالهما إلا ونراه قد انشرحت نفسه وعرف ذلك من قسمات وجهه وذلك لاتفاق "الصبغة" التي تلاءمت معها النفوس واشتركت بها.

إنما مهمة "التجنيد" وهي مهمة الأنبياء وأتباعهم من أجل صناعة "صبغة الله" في أرواح الخلق فاللهم اجعلنا من أهلها.

في هذا الحديث العظيم تنبيه أن المؤمن لا يحبه إلا مثله وكذا الكافر، فالذين يطلبون رضا الكافرين عنهم، وأن يقولوا فيهم كلمة إنصاف هم واهمون، إذ هذا لن يكون حتى تتعارف الأرواح بما تؤمن به، وكم من حديث قال فيه الرجل لنبينا صلى الله عليه وسلم كلمة بغض وكراهية، فهو أبغض الخلق إليه، فما أن يؤمن الرجل حتى يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم أحب إليه من نفسه وأهله والناس أجمعين، لأنها الأرواح وما تحمل، ولذلك الزاني يحب مثله وكذا المرابي والمشرك والفاسق، والمؤمن يحب مثله، فالذاكر يحب الذاكرين وكذا المصلي والمجاهد والعالم وذلك لاتحاد الصبغة وتلاؤم الأرواح.





الحديث السادس والعشرين

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (لا يُلدَغ المؤمنُ من جحرٍ واحدٍ مرتين).

اليد الأولى للاكتشاف والثانية لماذا يا مغتر؟! أهو أمن الجاهل من حيّات الطريق وعقاربها؟! أم أنه ظن السوء أنه يمكن أن تنقلب الضواري حملاً وديعاً؟! فيا لجهالات المغترين بالبريق الزائف عن ماضي أجدادهم وتاريخهم وما أصابهم!!

ثم يا أيها المغتر تفكر: هذا " جحر " مخفي داخله ولذلك أذن لك أن تمد يدك الأولى مكتشفاً، فمالك قد نمت آمناً في وكر سباع وجماع أفاع لها ضباع تحت الشمس مكشوف؟!

في حيرة تحقيق الشهادة على الخلق تندفع الحيات والعقارب والسعالي تؤزها شياطينها بحرارة الخبث وسم الكراهية للحق لتقتنص الركب وأهله –ولا يزالون– سعياً وراء سعي، ومكراً وراء مكر –بل مكر الليل والنهار– حتى إذا أصابوا غرة من غافل أو ضعيف لدغوا نشراً للسم فيه وفي الجماعة، وحينها يتعطل الركب أو يضعف، هؤلاء هم " جحور "الباطل التي يجب على الجماعة أن تردمها، ثم يطين عليها فلا يكون لها روح ولا بقاء، وهذا الذي أمر الله به نبيه صلى الله عليه وسلم بقوله: (و لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض لنغرينّهم بك ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلاً، ملعونين أين ما ثقفوا أخذوا وقتّلوا تقتيلاً) وبهذا قمعت الجحور وردمت في الصدر الأول.

لحكمة عظيمة جرت أحداث السماء بين أبينا آدم عليه السلام وعدوه إبليس لتقع العبرة أن العداء هو العداء (إنّ الشّيطان لكم عدوّ فاتّخذوه عدوّاً) وقد ذكر الله أمر الشيطان وعداءه فلم يذكر طريقاً للتعامل معه سوى الاستعاذة منه وتوقي طرقه ومكره، فهو عدو لا يأتي منه إلا الشر، فهذا هو طريق الحكمة مع "الشياطين" الذين يتقون في "الجحور"، فإن للظلمة والرطوبة التي يعيشون في أجوائها ميزة علمتهم المكر الذي يستدعي "الكمون" القائم على الصبر الطويل في انتظار اللحظة الملائمة لبث سمومها والإيقاع بضحاياها.

من أعظم هؤلاء شراً وسمّاً هم أهل "التقية"، فهي جحر الأفاعي الرطب المظلم الخبيث، ربوا على الحقد وقيح الحكايا الباطلة، وأشربت قلوبهم "النواح الحقود" يبيتون على طوى الذل والخنوع حتى إذا سنحت لهم فرصة "اللدغ" نشطوا لها لا يردعهم دين ولا خلق، يتحالفون مع الكفر الصريح ليشفوا نار غليلهم من المسلمين، هذا دأبهم وسيرتهم مع كل حلقات التاريخ، فيا لتعاسة الذين لا يقرؤون التاريخ ويعتبرون به، بل يمرون عليه مرور الجهل قائلين: هذا زمان يختلف، وقد تغير الناس، ولكل زمن ظروفه، وما علموا أن القيم والعقائد هي هي لم تتغير وإن تزينت بزي جديد وبلباس خادع متطور.



إن المؤمن شرطه " الاعتبار " فمن لم يعتبر بما يصيبه لن يعتبر بما قُصّ عليه عن غيره، فإن كانت الندوب التي في جسمه لا يلتفت إليها فكيف له أن يرى ما يقع مع الآخرين؟! هذا "الاعتبار " هو الذي يجعله يراكم المعارف والتجارب ويضعها نصب عينه في مسيرته ورحلته مع العبودية لرب العالمين، أما أولئك الذين يظنون أن شرط الإيمان " الغفلة " فهؤلاء حقيق بهم الزوال وغلبة الأعداء عليهم، بل اتخاذهم مطايا لتنفيذ مخططات الأعداء بهم، وإن من أخطر الذنوب التي يقع فيها المؤمن هو أن يكون يدَ شرٍّ لأعداء الله تعالى وهو يحسب أنه يحسن صنعاً، وحال هؤلاء كحال المبتدع إذ لا توبة له، لأنه يظن أنه على حق وصواب، بل يموت في سبيل هذا، وهو في الحقيقة يخدم أعداء الله، وهذه " البدعة " الكبرى وهي التي تتعلق بالعمل لدين الله هي التي يجب أن نتكلم عنها أكثر من غيرها من البدع " الشخصية " والفردية، إذ البدع الفردية مردها على صاحبها، أما البدع التي تتعلق بالعمل الإسلامي فهذه ضلالاتها تعود على الأمة بمجموعها، وهذا الذي يقع، فإن كثيراً من العاملين لدين الله تعالى إنما يخدمون الشيطان وجنده، بل هم من " دوابهم " ومطاياهم وهم لا يشعرون، وسبب ذلك " الغفلة " وعدم الاعتبار والنظر.

العمل لدين الله تعالى لا يتفاعل ولا يقدم ثماره دون نظر للتاريخ وأحداثه، ولا بالغفلة عن الواقع وظروفه، وليس هناك من حدث معاصر منبت عن تاريخ له، بل كل عامل يحمل موروثه الذي يهتدي به ويتفاعل معه ويسترشد به، وما وقع للأجداد يجب أن يكون حاضراً للأحفاد وكما قال ابن مسعود: "السعيد من اتعظ بغيره" ولذلك "فالحية لا تلد إلا حية" وتربية الذئاب وسط الحملان لا تقبلها وديعة بل كما قالت الأعرابية: "ومن أدراك يا ابن الذئب أن أباك ذيب" وهذه طوائف جحور "التقية" الخبيثة عاشوا مئات السنين وسط المسلمين فهل انتفعوا بذلك أم إن الحفيد لم يزدد إلا حقداً عما كان عليه جده؟! وها هم اليهود الذين عاشوا بين آبائنا وأجدادنا هم شر يهود على المسلمين وأكثرهم عقراً لإخواننا في فلسطين، فالتاريخ حمل على الكواهل رغم أنف أهل "الغفلة" من مدعي السياسة والكياسة، ومن عجائب الواقع أنه ما من "علماني–لا ديني" خرج من طوائف "جحور التقية" إلا ويبقى وفياً لطائفته، ينقلب عليها بالمنفعة والنصح والإنتصار، إلا هؤلاء الخبثاء "الدواب والمطايا" الذين خرجوا من أهل السنة إلى ردة العلمانية واللادينية فإن شرهم على المسلمين أعظم من شر اليهود والنصارى والمشركين، فسبحان الله كم هو ضرر "الدواب" هؤلاء وكم هي غفلتهم وجهالتهم؟!

ثم ليعلم أن الجهاد لا ينفع مع "الغفلة" ولا "العماية" بل يكون الجهاد شراً وفساداً في الأرض من غير بصيرة وهداية وتذكرة، و"الجهاد" خاصة ليس بالأمر الهين الذي يجوز فيه مثل هذه الأغلاط من "النوم على الأقارب والأفاعي"، فإن "المجاهد" في صدره حمية وفي يده بندقية وأقل غلط في ذلك هو الفساد والدماء وإهلاك الحرث والنسل – (و الله لا يحب الفساد).





الحديث السابع والعشرون

عن زيد بن خالد الجهني رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من جهّز غازياً في سبيل الله فقد غزا، ومن خلف غازياً في سبيل الله بخير فقد غزا).

ليس في الركب إلا مجاهد، لا فرق بين حمل السلاح أو أعان حامله أو سدّد المسار، فإن كانت تلك همة فهي همة حق، وإن كانت منافسة على الأجور والدرجات فالقسمة سواء، فالركائب لا تدوم ولا يطمئن أهلوها إلا بالمدد وحماية الظهور واطمئنان على الأهل والمال والولد، فهذه طريق لا طرد فيها لأحد، ولا تفضيل فيها لأحد باعتبار الصنعة إنما التفضيل بإتقان الصنعة، والإخلاص لها، ومداد التقوى الساري في القلوب، فعجيب لمن يتكلم عن الشجاعة وهو لا يعرف أفنانها ولا همومها، فهل الخائض قتلاً في أعداء الله مقتحماً بفرسه في غمراتهم أشد شجاعة ممن بات على ثغر الحرائر ليس هناك سواه، ملق بسامعته لتلتقط أدنى حس أو خبر، يخاف أن تؤتى الذمام من قبله؟! لا والله، وهذا هو أبو بكر رضي الله عنه أفضل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يذكر عنه كثير قتال في بدر مثلاً كما ذكر من شأن حمزة رضي الله عنه، وكان موقعه على غرز رسول الله وخيمته، كما كان موقعه في الهجرة يحميه ويحوطه بنفسه، وبذلك عرف له الفضل، وها نحن نرى اليوم أن من قدّم ماله في سبيل الله معرض للإبتلاء أشد ممن هو آمن مع سلاحه مقاتلاً، والمواطن لها رجال، فمن جهالة البعض اختزال مواطن الجهاد في موطن واحد، بل العدل والعقل هو النظر إلى الحياة وما فيها من سبل وفجاج، وإكبار الناس الواقفين على ثغور هذه السبل والفجاج، فالمجاهد المقاتل ما كان له أن يقوم لولا إمام المسجد، وما كان له أن يقوم لولا من يعلّم طفله سورة الفاتحة والإخلاص، وما كان له أن يقوم لولا من يحميه في ظهره بالدفاع عنه وعن عرضه بالبيان وسحر المقال، وها هي دول الشيطان تنفق الملايين لصرف الناس عن دينهم لا بالحرب فقط ولا بالسلاح فحسب ولكن بإغواء الكلمة والصورة. فالقائم لهم أشد في نحورهم من رامي النبل كما قال الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم لحسان بن ثابت رضي الله عنه، وكما ينزل الله الملائكة لنصر المجاهدين المقاتلين فهو ينزلها كذلك لتلك المعاني كما قال البراء رضي الله عنه: أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لحسان: **(أهجهم وجبريل معك)**، والركب المجاهد في مسيرته مطلوب أن يعرف مقامات الناس وفضلهم في أماكنهم، **(فالساعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله أو كالذي يصوم النهار ويقوم الليل)** كما قال المصطفى من حديث صفوان، وغرور الناس في صنعتهم مفسدة للركب وهي أشبه بدعوى الجاهلية وحقيق أن يقال لمن تطاول على إخوانه بنسب الصنعة أن يقال له كما يقال للمفتخر بنسب الآباء، ثم قد علم من فنون الحروب أن الجبهات المقاتلة لا تسع كل الناس، بل إن زاد أهلها عن الحد صاروا عبئاً على الناس، فبهذا يعلم أن الحكمة هي وضع



الشيء في موضعه. ألا فليعلم أن مكشوف الظهر لا يدوم، ومهموم البال لا يصمد، والجائع لا يقوم، ومن غير وقود يستحيل ما في النار رماداً لا يشتعل، فلابد للركب من كلمة حانية تنافح عنها، وحادٍ يدفع العيس حتى يقال له: (رفقاً بالقوارير)، وتاجر يؤمن جيش العسرة عثماني القلب والنفس، وصاروخ في الجيش خير من ألف فارس، وحكيمة كأم سلمة تقول لحبيبها إن دخل عليها مهموماً من تخلف الناس: " يا نبيّ الله أتحب ذلك؟ أخرج ثم لا تكلم أحداً منهم كلمة حتى تنحر بُدْنك، وتدعو حالقك فيحلقك " فخرج فلم يكلم أحداً منهم حتى فعل ذلك، نحر بُدْنه، ودعا حالقه فحلقه، فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا، وجعل بعضهم يحلق بعضاً حتى كاد بعضهم يقتل بعضاً غماً. وهكذا تتوزع المهمات بحسب القدرات وما قدر الله فيها للخلق، كل يعلم أن ما هو فيه خير وأن غيره في خير كذلك، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

ثم إن فضل الأعمال لا تعرف من قبل الأطفال، فهؤلاء صغار تبهرهم البهارج والألوان، وتفزعهم الأصوات العالية، يظنون أن الماء إنما هو من هذا المقبض الحديدي الذي يديرونه فينزل ماءً، ولا يرون أنابيب المياه الخفيه التي هي ناقلة له، ولا يرون منابع المياه وراء الجبال، فهذه نظرة الأطفال وتلك أحكامهم الجاهلة، ومثل هؤلاء إن صارت الأحكام إليهم وأكثروا الصراخ وقادوا المسيرة فعلى الركب السلام، إذ لا تصلح المسيرة إلا بقيادة هادية رشيدة ولو تأملنا ما كان يقوله رسول الله لأصحابه وحثه أن يلزموا أماكنهم وصنعتهم لرأينا عجباً، فقد كان يثير الفضائل المكبوتة، ولا يفتخر الناس بشيء علموه وانتشر أمره إلا وأشار إلى غيره من الفضائل مما تخطئه العين ولا تنتبه له، ذلك لأنه البصير بما هي عليه الحياة، وكفى بقوله: (دياركم تكتب آثاركم) و(اعمل من وراء البحر).

أما أنها تهمة حق وأن الركب كله مجاهد، فعجيب لأولئك القوم الذين ملؤوا نفوس الشباب بحب الجهاد والشهادة، وصاغوا أمرها بأحلى كلام وألقوا فيها الخطب والدروس ثم لما كان الجهاد وناره وفتنته انقلبوا ذامين شاتمين متبرئين، ألستم أنتم ممن بغّض في نفوس الشباب الكفر وأهله؟! ألستم أنتم ممن عددتم قبائح الكفار وظلمهم؟! ألستم أنتم الذين قلتم إن أهل الإسلام هم قدر الله في عذاب المشركين؟! ثم ألستم أنتم من علّم الناس الولاء والبراء؟! أبعد هذا كله ماذا كنتم تنتظرون من هؤلاء الشباب سوى الإنغماس في غمرات الموت ونكاية الأعداء؟!

نعم: "يداك أوكتا وفوك نفخ" فإن نكثت، فتلك سنة الله في البعض: يقل الصالحون حتى لا يبقى إلا كما يبقى في الإناء بعد الشرب، وإن صبرتم فتلك سنة الله في آخرين: (الذين قال لهم النّاس إن النّاس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل، فانقلبوا بنعمة من الله وفضل والله ذو الفضل العظيم)، فاختر أي السبيلين يا مسكين.



الحديث الثامن والعشرون

عن أبي هريرة رضي الله عنه أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (ليس الشّديد بالصُّرعة إنّما الشّديد الذي يملك نفسه عند الغضب).

كل فعل لا يقع بإرادة يقظة محكوم بفساده، إذ ضبط القوة في مواطن الطيش حكمة العقلاء، فالصلاح لا يقع لجماعات الحق إلا باجتماع القوة والحكمة، فإذا انفرد أحدهما عن الآخر لم يقع، فقوة في يد سفيه مهلكة ومفسدة، وحكمة في رأس ضعيف كرأس بلا بدن، وفي رحلة الشهادة على الخلق لا يوجد إلا العلم، ولا خصومة إلا في الله كما دعاء المصطفى صلى الله عليه وسلم في قيام: **(اللهم بك آمنت وعليك توكلت وإليك أنبت وفيك خاصمت وإليك حاكمت)** وهذه الكلمات هي جماع فعل المؤمن لا يشذ عنها عمل ولا حركة ولا قول ولا سكنة، والإنفعالات النفسية الطارئة السريعة لا يسلم من باطلها إلا القليل من الحق، لأنها فالتة عن زمام الحكمة والتدبر والدراسة، فإذا اجتمع معها نسيان المر للتاريخ وغفلة عن الحاضر وتجهل بالعواقب ازداد شرها، فإن كانت مع القدرة فحينئذ هو الفساد بعينه، ومن هنا فردّاتالأفعال ليست بشيء إن اتسمت بسمة السرعة والفجأة، بل لابد من التأني لحصول الوعي والقراءة الصحيحة.

(ليس الشديد بالصرعة)، فهذا إنسان قدر على الفعل لكن هل أمن الردع والعاقبة، فليس العبرة بأن تقدر على الفعل، لكن من العبرة أن يكون عندك القدرة على تلقي نتائج الفعل وهو الذي يسمى بالردع، فهذا هو العقل والحكمة، ففي حالة الغضب يكون الإندفاع الذي يؤمن حصول الضرر للخصم، اندفاع مع البغتة، لكن بعد ذلك وبعد أن تؤوب القُوَى إلى ميزانها الصحيح دون مرجح آخر فكيف سيكون الحال، أو حين يجمع الخصم جراو عتاده، ويؤمن لنفسه أسباب هلكتك فماذا سيبقى لك حينئذ سوى الهزيمة؟

الغضب تركز النفس حول نقطة عابرة، وحدث سريع، فتشتعل مع ذهول عن ماض يجب أن يعتبر، وقد تقدم أن الاعتبار شرط الإيمان وهو بحث كذلك، فإن المرأة تكفر عشيرها، إذ يحسن لها الدهر كله، ثم إن أردت شيئاً من زوجها قالت: ما رأيت منك خيراً قط، وهذا من قلة الإيمان والعقل، وكذلك الغضب.

ثم ليعلم أنه ليس كل اندفاع نحو الخصم صواب وحق، فهذا رسولنا صلى الله عليه وسلم يقول لمسلمة بن الأكوع رضي الله عنه **(ملكت فاسجح)** إذ في ذلك عبرة أن حركة الهجوم هي حركة واعية حتى في النصر وهزيمة الخصم، إذ العقل والحكمة لا يتيهان في ظرف من الظروف، ولا يغيبان، لا بفعل غضب ولا هزيمة ولانصر، إذ لكلك واحد من هذه الحالات سكرته وجهالته.



(الشديد الذي يملك نفسه) فيحكم قيادتها، يدفعها حين يكون الإندفاع حكيماً، ويلجمها حين يكون الانكفاء حكيماً، فهي بيده، يقيدها بقيد الحكمة والعقل، فلا تنفلت منه كانفلات الكلب العقور وأوابر الدواب.

في رحلة الجهاد وأنت تملك بعض "الشدة" تُستفَزّ لفعل لا قوام له سوى الغضب، ولا يحقق سوى المنفعة للخصم كما يستتز الثور الأحمق في لعبة الموت، فيحرك الخصم له بعض القماش وقد وضع أسياف الموت في جنبه، ففي هياجه الغبي وحركته هلكتُه وموته، والداعي والمجاهد بصير بما عليه من قوة، وبصير بما عليه الخصم من قوة، ولذلك هو يحكم قيادة أفعاله لا لتتفجر كالقنبلة لا تحقق وراءها سوى الخراب، بل هو يبني وحين يهدم يكون في سبيل البناء، وكل فعل لا يقدم الإسلام إلى الأمام فتركه واجب، وإني أخاف أشد الخوف من تلك العقلية التي تعجز عن البناء فتهرب إلى الموت، وهذه عقلية صبيانية يحكمها الغضب الجاهلي وسعار الانتقام تحت دعوى محبة الجنة والرغبة في الدار الآخرة، وهذه إن كانت محتملة من الصغار فإنها جريمة كبرى من القادة والأئمة ورعاة المسيرة لأن هؤلاء لا تحكمهم اللحظة الزمانية الراهنة بل يحكمهم منطق التاريخ بعمقه الطويل، والمستقبل الذي قوام التعامل معه مقولة علي رضي الله عنه: "واعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً".

السير نحو الموت خيار جائز في حالتين فقط: أولاهما: حين لا يكون سوى الموت خياراً، فإما أن تموت ذليلاً وإما أن تموت شهيداً فحينها تتحقق المقولة الأخدودية الخالدة: "يا أماه اصبري فإنك على الحق" وحينها يقتحم الأخدود، وهذه لا فرق فيها بين القادة والقاعدة بل هي خيار للجميع والمختلف عنها ناقص، والثانية: للقواعد المجاهدة ممن رصدوا للنكاية من منظور شرعي ومصلحة راجحة، ثم إن هذا الفعل ليس إلا استثناء لا قاعدة.

الغضب يولد حركات انتقام، وهي حركات لا قيمة لها في حركة الشهادة على الخلق إلا ما كان لله تعالى، وهي حركات مكشوفة للناس أن أبعادها شخصية ودوافعها الهوى وبالتالي تفقد الدعوة نورها الساري فيها أن القوم إنما ينتصرون لدين الله الذي يحملون همومه وقضاياه، وحركات الغضب حركات فيها الطيش والانفلات عن قيود الشرع والدين وغلبة الصغار الذين هم أشد صراخاً وفيهم قلة عقل من غيرهم، وهذه بمجرد وقوعها فإنها كالشرر الذي لا يعرف العقلاء مواطنه ولا آثاره ونتائجه، وكل ذلك شر وبيل في رحلة الشهادة على الخلق.

الغضب يعني غياب الإدارة العاملة ويعني غياب الوعي عن النتائج، ويعني غلبة الهوى، ولا يُمدح إلا إن كان لله تعالى فهو حينئذ محكوم بقيم الشرع والعقل، ولكن كثيراً ما يتقنع الغضب الشهواني بقناع الشريعة وتلك بدعة عظيمة من بدع الأمم والجماعات.





الحديث التاسع والعشرون

عن عبد الله بن مُغفل رضي الله عنه قال: نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الخَـذْف وقال: (إنه لا يقتل الصّيد ولا ينكأ العدوّ، وإنه يفقأ العين ويكسر السّن).

من استمرأ الهوان ذهبت إلى غيره العوالي، وجاء رجل إلى الإمام أحمد فقال: جئتك "بحويجة"، فقال له: إبحث لها عن رجيل، فحين يقع الصراع على أساس القيم والدين فليس إلا النهايات مطلب صحيح، وإلا فالهلكة، والذين يشرعون في الصدام ولا يتوقعون السحق هم جهلة بسنن الحياة ومسيرة التاريخ، فالذين يفقؤون العين ويكسرون السن ويُبْقون على قوة خصمهم بعين يتركونها وأسنان قاطعة أخرى سيرتد عليهم جهلهم وتنقلب غفلتهم دماراً سيندمون عليه.

حين ترمي حجراً على خصمك لتقيس قوته وتقول: أريد أن أؤلمه لأرى ردة فعله، وأنت تتعامل بمنطق الجهاد والقتال فأنت بحق سفيه حقيق بك الدمار والهلكة، فمثل هذه الأمور لا تحتمل هذه اللعبة السخيفة ولا هذه الاحتمالات العقلية التي هي أحق بالكلمات والحروف لا بالأرواح والدماء وموازين القوى.

حين تقرأ تجارب بعض العاملين لدين الله تعالى ترى جهالتهم العجيبة في سنن المواجهة والصراع، فهم يرمون "حجارة" يؤلمون بها الخصم من خلال استعراض صور وكلمات وأعداد لا عدة لها، فما هي إلا أن يصاب الخصم بـ"السعار" وتلك طبيعته، فيبطش بطشته المؤلمة التي لا تبقي ولا تذر، ولا يدري هذا المسكين "المستعرض" برمي الحجارة أن هذه طبيعة الحياة وقانون الوجود.

إياك أن تؤلم خصمك استعراضاً بلا نكاية، فالحياة لا تحتمل هذا اللعب، فإما الفعل السنني الملائم وإلا فالترك هو الواجب، فالذين يرمون النمر ويجرحونه دون الإجهاز عليه سيبكون على هذه الإثارة الغبية في العاقبة.

(الخَذْف) لعبة الصغار، صغار العقول، فيها متعة الاستعراض والتمثيل في باب من أبواب الحياة لا ينفع فيه إلا الجد، ولا قيمة فيه إلا للقتل والنكاية، والأسلحة إن شرعت من أغمادها يعني أنك سمحت لخصمك أن يأخذك بأشد ما يملك، فلا تقولن حينها لم أتوقع ذلك، أو أن ردة فعله فوق اللازم، فهذه تخمينات الجهال الصغار الذي لا مكان لهم في الحروب إنما هم لاعبون بل لاعبون صغار جهلة، ومن عجائب البعض أنهم يلقون الكلمات الكبار استعراضاً وتهديداً وليسوا من أهلها وإنما جلّ فعلهم أن يثيروا الخصوم إثارة التدمير والهلكة.

(الخَذْف) منهج عقلي فاسد، يتعامل مع الاحتمالات القريبة كفقء العين وكسر السن، مع أن المطلوب هو النكاية وقتل الصيد، ومنهج يتعامل مع الجد الذي لا جد بعده بلعب صبياني جاهل، وهو "تشيئ" أي جمع بين



أشياء متعارضة، فـ(الخَذْف) قد تريد منه اللعب والإستعراض والمتعة، لكن بأدوات مؤذية لا تتناسب مع روح اللعب والمتعة والإستعراض، فتفقأ عين أخيك وتكسر سنه، وقد تريد منه (الخَذْف) القتال لكن بأدوات لا تصل إلى مستوى جد القتال لأنه لا يقتل الصيد ولا يكسر السن، فإما أن تريد اللعب فتلعب بأدوات اللعب، وإما أن تريد الجهاد والقتال، وللقتال أدواته وآلاته، أما هذا "التشيء" فهو لا يتناسب مع سنن الحياة وضروراتها، ولكن كثيراً ما يرى هذا "التشيئ – الخذف" في حركة الجماعات والأمم، فيؤذون أنفسهم وإخوانهم، فبالله عليكم ماذا تقولون فيمن يستعرض الصدور العارية صراخاً وتهديداً أمام الجيوش المدججة بالسلاح والحقد؟ فهل هؤلاء إلا لاعبون لعبة الدماء والأرواح في غير طريقها؟ وهل أرواح المسلمين تهون لهذه الدرجة؟ وهل الدماء رخيصة لتكون سبيلاً لإثارة شفقة العلم الذي لا يعرف إلا لغة القوة والخوف؟!

يا أهل الإسلام إياكم و(الخَذْف)، وأعرضوا قدر الاستطاعة عن الإستعراض الرخيص والمناورات الخاوية في أبواب الحياة وخاصة باب الجهاد والقتال والدعوة إلى الله تعالى فإن الأمر جد كله لا لغو فيه وباطل.



الحديث الثلاثون

عن أنس رضي الله عنه قال: كنّا عند عمر فقال: "نُهينا عن التّكلّف".

الوعود الإلهية جليلة عظيمة، وهي تكاليف شرعية على الأمة، يجب أن تسعى إليها لتبلغها، ولكن هيهات أن تكون تكاليف النهايات هي حمل البدايات، فظالم لنفسه من لم يعرف قدره ووسعه، إذ في ذلك هلكته، فمن حكمة العقلاء وهي سنن الأنبياء معرفة ظروف الحلقة التاريخية التي يعيشونها، وما هي متطلباتها ووسعهم فيها، وتجاوز ذلك ما لم يكلفه الله تعالى، وفي المعصية الزلل والهزيمة، فلا يصلح للخلق إلا ما كلفهم الله به، ولم يكلف الله تكليفاً إلا وشرطه القدرة، وتكليف ما لا يستطيعه المرء خارج عن حكمة الشرع والعقل.

السيرة النبوية هي النموذج الحي في إمكانية بلوغ الغايات العظيمة والنهائية من البداية، ودون التخلي في كل مراحل المسيرة عن قيم الحق ومبادئه، وكان الشرط المصاحب لكل النجاحات في كل مراحل السيرة هو تجنب الهلكة وذلك في ترك التكلف، إذ وضع النفس في الموضع الغلط هو الذي يحقق السحق والهزيمة والتعوق، فحين جاء السيل هادراً في الأحزاب لم يواجهوه بشواخص بارزة، ولم يخوضوا حرب مواجهة كبرى مع الجميع في موقعة واحدة، بل هو بناء صبور بحسب الوسع والقدرة، وحين يدعون إلى مرحمة بلا خيانة لم يترددوا في اغتنامها، وحين يحضر موطن الحرب فلا هذر ولا مخاتلة، وحين يكون الحوار فلا وجود إلا للكلمة الحسنة والموعظة الرقيقة، فلا يذهبون بعيداً والماء تحت أقدامهم، فلم تستفزهم الوعود العظيمة بفتح فارس والروم أن يرموا أنفسهم في قضايا أعظم من وسعهم في كل مرحلة، بل كان التعامل مع كل مرحلة ضمن ظروفها لا من خلال الوعود الإلهية بأخذ المشرق والمغرب، ولعل في حادثة صلح الحديبية عبرة وعظة في التوفيق بين الوعود وبين القدرات الظرفية، إذ كان الوعد بالفتح حاضراً، فظن الصحابة أن حضور الوعد يعني الذهاب إليه مباشرة مع تجاوز الظرف التاريخي، وفي ذلك مصادمة للسنن التي أوجب الله على البشر العيش من خلالها، والهدي النبوي هو هدي السنن، والهدي معناه عمل البشر الملائم للتكوين، وبذلك يقع النجاح، هذه قضية يجب على العاملين لدين الله تعالى أن يفقهوها، وهو أن الشرع ليس فيه قط ما يسمح بتجاوز سنن الخلق والتكوين في النفس والمجتمع والطبائع، إذ يظن البعض أن الشرع يعطي صاحبه والعامل به قوة خاصة تجعله يتجاوز السنن التكوينية، وكأن الحياة مع المسلمين هي الكرامة المتواصلة الخارقة للعادة، ولعمر الله هذا هو أبطل الباطل، ومما يؤسف له أن الحديث الدائر حول الوعود الإلهية وبركات الشرع كله يدور حول هذا الإطار، وهو أن السنن التكوينية تكسر وتتغير للعامل بالشرع والعابد لربه والذاكر له، فيا ويح هذا التصور كم أفسد من عقول وكم أوقع المسلمين في الهزيمة والهلكة، ويسبغ البعض على هذه التصورات الباطلة آيات قرآنية يضعونها في غير موضعها كقوله تعالى:



(كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله) وكقوله: (إنا لننصر رسلنا في الحياة الدنيا وفي الآخرة) ويتجاوزون معنى الغلبة والنصر الملائم للظرف، فإن الله سمى نجاة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم من القتل في حادثة الهجرة نصراً فقال: (إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إنّ الله معنا...) وسمى خروج إبراهيم عليه السلام من النار سالمًا نصراً فقال: (و أرادوا به كيداً فجعلناهم الأخسرين) وسمى نجاة نوح عليه السلام وهلكة قومه نصراً فقال: (قال ربّ انصرني على القوم المفسدين) وقد فعل سبحانه، وهكذا النصر والهزيمة أمران اعتباريان بحسب الحلقة التاريخية وليس لهما مفهوم مطلق في الوجود، والمقصود هو التنبيه على أن العامل لدين الله تعالى لا يجوز له أن يحمل حملاً أثقل مما آتاه الله من الوسع والقدرة اتكالاً على الوعود النهائية العظيمة، فإن السنن التكوينية لا تحابي أحداً وعبادة الله لا تعطي المرء حالة خاصة ولا قدرة خاصة يقفز بها عن هذه السنن التي من عدل الله أن تجري على الكل بلا محاباة، والحق معناه موافقة التشريع للتكوين، فالخبر موافق للحدث، والأمر موافق للغايات، وبهذا عرف العقلاء صدق النبوة المحمدية وما أتت به.

التكلف هو الذهاب أبعد من القدرات، وأبعد من المطلوب، والمطلوب في الشرع موافق للقدرات، والذاهب بعيداً وإن سار قليلاً فمآله الانقطاع والهزيمة، ومن سيئات هذا التكلف عند الطوائف العاملة لدين الله تعالى أنه أدى إلى شر سلبي عند طائفة بأن جعلها تتنازل عن بعض المبادئ والقيم، إذ من تحمَّل فوق الطاقة حاله ما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (اللهم إني أعوذ بك من المأثم والمغرم)، وحين سُئل عن شر المغرم –والمغرم هو الدَّين الذي تحمله المرء– قال: (إنّ الرّجل إذا غَرِم حدّث فكذب ووعد فأخلف) وهكذا هؤلاء الناس حملوا أنفسهم فوق طاقتهم فتحالفوا مع الكفر وتنازلوا له عن الكثير من الدين والحق، ففي سبيل الوصول للوعود من النصر والتمكين فعلوا الكثير من الشر وضاعت قيم الحق التي قاموا من أجلها تحت وطأة الهدف من التمكين، حتى صارت صورتهم في أذهان الناس على صورة غيرهم من أهل الجاهلية لسلوكهم سبيلهم، وهذا التكلف عند طائفة اخرى وذهبوا دون تحقيق الوعود، وإنّما غرّهم ثقتهم بأنفسهم المبنية على الوهم لا الحقائق، وعجيب من هؤلاء أن يوجبوا على الله أن يحقق عليهم الوعود في المكان والوقت الذي يريدونه دون احترام للسنن أو عمل كافٍ لموجباتها. فاللهم رحماك.

التكلف معصية في الشرع ومعصية في القدر، فلهم في الدنيا الهلكة والفساد، وفي الآخرة حالهم حال المبتدع (وهم يحسبون أنّهم يحسنون صنعاً).





الحديث الحادي والثلاثون

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (يرحم الله لوطاً لقد كان يأوي إلى ركن شديد، ولو لبثت في السّجن ما لبث يوسف لأجبت الداعي، ونحن أحقّ بالشّك من إبراهيم إذ قال له: (أولم تؤمن قال: بلى ولكن ليطمئن قلبي)).

إنّي لأُشهِد الله وملائكته ومن قرأ كلامي هذا أنني ما قلبت حديثاً للنبي صلى الله عليه وسلم إلا وتأخذني قشعريرة النور، فأتخيل نفسي وكأن بين يدي جوهرة تخرج منها أنوار جميلة من كل جهاتها لا أدري من أين آتيها، فتصيبني الحيرة للحظات بل ومرات لأيام فأقول لنفسي دعك من الكتابة، وقف عند التأمل فحسب، فإن ما ستكتبه ظلمة تجلل بها هذا النور، وماذا ستبلغ في كتابتك من هذه المعاني مع هذه الحِزم الرائعة البديعة، لأني حين أترك القلم مع الحديث أعود على نفسي بالتحقير والتأنيب: ماذا فعلت؟ أين في كلامك ما أحسست به من المعاني، فأجد كلاماً فارغاً مُحبَطاً لا روح فيه، ليس أمام الحديث، بل أمام ما أحسست به فقط من المعاني التي غشيتني من نوره فاللهم يا رحيم اجز عني وعن أمة محمد صلى الله عليه وسلم وعن العالم أجمع نبينا محمداً صلى الله عليه وسلم خير ما جزيت نبياً عن أمته خيراً، وبرحمتك يا خير الراحمين وخير الغافرين احشرني تحت لوائه يوم القيامة. آمين.

ماذا أقول في هذا الحديث النوراني العظيم؟، هل أقول لكم أني مع هذا الحديث تخيلت رسول الله صلى الله عليه وسلم بقامة مديدة من عظمة وإمامة، على ربوة من قيادة وحكمة وعلم، يستعرض من مسيرة العظماء من إخوانه، فيسدد، ويقدم ويؤخر في المسيرة، قاطفاً لأمته خير الخيرين وأعظم الهدايتين، مرشداً ومعلماً ورحيماً ورؤوفاً؟!

ماذا أقول لكم: تأملوا معي غوص هذا الكلام في ثنايا النفوس، لا النفوس التي تعيش على هامش الحياة بل الغوص في النفوس التي تمتلئ بجواهر المعاني ودرر الحكم وتجارب السنين وأنوار الإيمان.

هل أقول لكم: قفوا صحبي على مطيكم وانظروا طويلاً:

(يرحم الله لوطاً لقد كان يأوي إلى ركن شديد): في لحظة عصيبة، تفجر فيها الأمل من نفس طاهرة وهي ترى وحوشاً بهيمية تتدافع نحو النجاسات لتلغ فيها، وتعرض عليها الطاهرات فتتأفّف منها، وتجادل بألفاظ الحق (ما لنا في بناتك من حق) فيلتفت الرجل الطاهر بغيظ مرهق، وأيد تلوح في الهواء، وبدن يهتز كجمرة، يريد أن يصرخ مستنجداً بوادي رجال فلا يرى إلا يديه الفارغتين، فيتأوه مع صرخة مؤلمة، وجارحة لجوفه وفؤاده، مع



دمعة حزن وقهر وغيظ، فتخرج منه كلمات تعبة مهدودة: (لو أنّ لي بكم قوّة أو آوي إلى ركن شديد)، لقد قصها القرآن و لم يعاتب صاحبها، وكيف يُعاتَب المذهول بالقهر، قهر النجس المتمكن للطاهر الضعيف؟

توقف أيها المراقب: هذا حديث مراتب، إنه حديث المعاني، حديث الأرواح الصاعدة المتسابقة في صعد النور العلوية الرفيعة، فإياك أن تتعامل معها حديث الحدود فتذهب عنك روعتها وبهاء قسماتها.

نعم لم يكن يملك لوط عليه السلام قوة، لكنه كان يأوي إلى ركن شديد وهو الله القوي العزيز.

إنه الإرشاد النبوي اللطيف، إرشاد لك أيها السائر على درب الأنبياء في الدعوة إلى الله والجهاد في سبيل الله تعالى، إنه إذا ضاقت بك السبل، وأطبقت عليك الحوادث من كل أقطارها، وغشيتك الغمرات العاتية، حينها تذكر ركنك الشديد فتأوي إليه وتلتجئ إليه: (اللهم إنّي أسلمت نفسي إليك وفوّضت أمري إليك وألجأت ظهري إليك رغبة ورهبة إليك لا ملجأ منك إلا إليك) باكياً شاكياً منيباً أواهاً ضعيفاً.

أخي: لا تثريب على النفوس إن ضاقت وأغلقت عليها الأمور، فالفرِح يقول غالطاً: "اللهم أنت عبدي وأنا ربك"، والحزين ينسى كما نسيت أم موسى عليه السلام ما أوحى الله لها: (إنّا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين) لكن الشوق إلى فلذة كبدها وحشاشة نفسها (و إن كادت لتبدي به لولا أن ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين) فترسل أخته لتتبع أثره أين يكون مستقره: (و قالت لأخته قصّيه) ما عوقبت ولا قيل لها: أنسيت وعد الله أن يرده إليك حتى أرسلت أخته وراءه، لا يا عبد الله هذه مواطن لا تثريب فيها على السالكين وقد علم الله من أهلها حبهم لدين الله تعالى وانتصارهم للحق، وإيثارهم للدين على ما سواه، ألم يقل الحبيب المصطفى لما أمر بالصدقة فقيل: منع ابن جميل وخالد بن الوليد والعباس بن عبد المطلب فقال الحبيب: (ما ينقم ابن جميل إلا أنه كان فقيراً فأغناه الله ورسوله، وأمّا خالد فإنّكم تظلمون خالداً، قد احتبس أدراعه وأعتده في سبيل الله، وأمّا العباس بن عبد المطّلب فعمّ رسول الله صلى الله عليه وسلم فهي عليه صدقة ومثلها معها) فانظر أخي الفقيه كيف ردّ رسول الله صلى الله عليه وسلم الفعل الواحد إلى مراتب متعددة بحسب الناس ومنازلهم، فأما ابن جميل فعوتب، وفي المعاتبة تقريع وتأنيب، وأما خالد بن الوليد ففي ربوة أخرى إذ كيف يمنع الرجل زكاة ماله وهو الذي حبس كل ماله للجهاد!! إذا دعوا أمر فإن من أتى العوالي لا يسأل عن أدنى منها، وأما العباس فهو العم الذي لا يعاتب وفي الوسع تحمّل ما يأتي، فدعوه وأنا أدفع لكم ما وجب عليه بل ومثلها معها، وهكذا هي حكمة النبوة ونورها وهديها، لا يفقهها الصغار الجهلة الذين يقفون عند الظواهر فحسب.

(ولو لبثت في السّجن ما لبث يوسف لأجبت الداعي): يوسف عليه السلام هو أكرم الناس فهو الكريم بن الكريم بن الكريم، لبث في السجن بضع سنين ظلماً وعدواناً، ليس له من ذنب إلا أنه بهيّ الطلعة، حاز على نصف الحسن الذي كان في أبيه آدم عليه السلام، لم يوافق عصبة المكر من النساء على الفاحشة، فكان الحل الشيطاني



لهذه المعضلة هو سجنه، ولائحة الإدعاء: أنت رجل جميل وطاهر، وكأنهم يقولون: نحن نعلم ما عليه القوم في بلدنا مصر من الفاحشة لكن طهرك يفضح هذه القذارات، إذاً لنسجنن حسنك وطهرك وهكذا كان.

ومرت عليه السنون صابراً محتسباً، ومن لم يذق القيد ووحدة السجن ظلماً ما كان له أن يتكلم أو يقول في هذا الباب، فالسجين يمضي أيامه خلف الباب ينتظر حساً ليشعر أنه حي:

إذا جاءنا السّجان يوماً لحاجة عجبنا وقلنا جاء هذا من الدّنيا

نعم: يقف خلف الباب لعل شيئاً من الحياة تدخل عليه في وحدته، فكيف إذا جاءه من يقول له: إن الملك يريد أن يراك ويسمع منك؟!

أي ثبات جبلي في نفس هذا الكريم بن الكريم بن الكريم؟!

أي اطمئنان حازه هذا الصدر فلا يتحرك له قدم لهذه الدعوة الملكية، بل يقول وهو في مجلسه، و لم يفك حبوته:

(إرجع إلى ربّك)

فإن سألك أين المفتي فقل له:

(ما بال النّسوة اللاتي قطّعن أيديهنّ)

هذه قضية، قضية تاريخ يجب أن يعاد فتحه من أوله، فأنا لا أنتظر عفواً مغموساً بالكذب يثبت الجرم الشائع على الألسن مع إقرار القلوب بكذبه.

أيها الملك: لقد مرّ الكثير من الماء من تحت قدميك وأنت لا تشعر، فإن أردت كتاباً جديداً فأعد كتابة التاريخ بلا تزوير ومن بدايته.

يوسف عليه السلام لم يكن واقفاً خلف الباب، بل كان واقفاً في النور.

هنا يأتي الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم ليقول: **(لو دعيت لأجبت)**، إنه خيار آخر، خيار التشريع والإمامة والإقتداء، إذ الحبيب يعلم أن ما سيفعله سيكون تشريعاً لأمته، وهو الرحيم بها، لا يحملها إلا ما يحمل الضعيف فيها.

خيار يوسف عليه السلام خيار لنفسه، ومن كان كذلك فليضع نفسه حيث قدر، وأما خيار محمد صلى الله عليه وسلم فهو خيار لأمته، ومن كان كذلك فإنه لا يختار إلا اليسر، فحين تكون لوحدك كن أبا بصير إن شئت، أشعل حروباً كما تريد، واقطع على الكافرين كل سبلهم، واجمع حولك أمثالك من أهل الصعلكة الإيمانية فالتحف السماء نهاراً والنجوم ليلاً، وافترش رمال الصحراء لجنبك، لكن ليس هذا خيار دولة، ولا خيار القائد لأمة، بل خياره أن يعطي الكافرين ما يحبون من مطالب ليس فيها معصية، ويضع معهم العقود والصلح، ويغضب



السابقون ويصرخون: مالكم... هيا الحقوا بنا، ولكن ما كان لقائد أمة ولا حاكم دولة أن يجري هـذا الجـري ويسبق هذا السبق في قرارات أمته كاملة، بل يتمهل ليلحق الجميع، ويكون الخيار واسعاً للكل.

يوسف الكريم لم يجب، ومن حقه أن ينبش كل القضايا، وأن تكشف كل الأمور، وأن يجلس في السجن مختاراً، لكن خيار الحبيب وهو يكتب صلح الحديبية فينازعه سهيل بن عمرو على حق له وأنه محمد رسول الله فيقول سهيل: والله لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت ولا قاتلناك، فيقول الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم: (و الله إنّي لرسول الله وإن كذّبتموني اكتب محمد بن عبد الله) ذلك هو الذي قال: (لا يسألوني خطة يعظمون فيها حرمات الله إلا أعطيتهم إيّاها).

إنه خيار الإمامة والقيادة لا خيار المنفرد المتحلل من التبعات.

ثم تأمل الأدب النبوي الرفيع، فحين ذكر ما قال لوط عليه السلام لم يذكر نفسه، إذ في ذكر نفسه تزكية لها وتفضيلاً لها على أخ من إخوانه، وهو كذلك صلى الله عليه وسلم، أما حين ذكر اليسر قال: (لـو لبثـت... لأجبت) فقد ذكر ههنا نفسه إذ ليس في ذلك تقدمة ولا تفضيلاً، فصلى الله على الحبيب عدد خلـق الله وعـدد رزق الله ومداد كلمات الله وزنة عرش الله.

(ونحن أحقّ بالشكّ من إبراهيم: إذ قال له: (أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي))

أخي الفطن: هل رأيت أيوب عليه السلام وهو يغتسل عارياً فتنـزل عليه أسراب الجراد ذهباً، فقفز عليه السلام إلى ثوبه يبسطه ليجمع فيه الذهب الآتي من السماء، فيناديه ربه: يا أيوب، ألم أكن أغنيتك عما ترى؟! إذ قد حزت ما هو أفضل من الذهب هذا، وإنه لسؤال من ربنا، سؤال الحب والوداد وهو الودود، وحـوار المحبين ليكشف الحبيب عن كنون صدر حبيبه، مناجاة تمت والعبد عار في موطن الحياء، فيرد العبد الحبيب بجواب الحب والالتفاتة التي تحمل كل الدلّ والطمع الحميد: " بلى وعزتك، ولكن لا غنى لي عن بركتك "، فلن يخطر على بالي قط أني سأشبع مما يأتيني منك؟ فليس الباب معك باب الحقوق بل باب البركة، إذ كل ما يأتي منك فيه معنى لا أجده في غيره، لأنها البركة الربانية.

إنه حديث المحبين وحديث البسمات والغوص بعيداً عن الحدود والظواهر.

تأمل الفرق بين القلوب الصدئة التي تقول: (لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة) وبين القلب الذي قيل لـه: (أولم تؤمن؟) فرد: (بلى ولكن ليطمئنّ قلبي).

تأمل الفرق بين من قال: (هل يستطيع ربّك أن ينـزل علينا مائدة من السماء فلما قيل لهم: اتّقوا الله إن كنتم مؤمنين) فردّوا باضطراب غير سويّ:

١. (نريد أن نأكل منها)



٢. (و تطمئنّ قلوبنا)

٣. (و نعلم أن قد صدقتنا)

٤. (و نكون عليها من الشاهدين)

فالأكل أولاً ثم... وماذا؟: (و نعلم أن قد صدقتنا) وبين قول عيسى عليه السلام: (اللهم ربّنا أنزل علينا مائدة من السماء)

١. (تكون لنا عيداً لأوّلنا وآخرنا)

٢. (و آية منك)

٣. (وارزقنا وأنت خير الرّازقين)

فانظر مراتب الطالبين للزيادة مع ثبات الأصل، وبين من علق الإيمان على شرط باطل، أو إضطراب في تصديقه حتى يرى.

إبراهيم عليه السلام آمن وسار في درب الإيمان ولكن لا غنى له عن البركة، وكذا من كان على درب الإيمان والجهاد والدعوة.

لا يعمل ليغفر له فقط ولكن يعمل شاكراً.

لا يحمد شاكراً لنعمة أتته، ولكن يحمد ربه لجلال وجهه وعظيم سلطانه.

قف عند قوله صلى الله عليه وسلم: (اللهم إنّي أعوذ برضاك من سخطك وبعفوك من عقوبتك وبك منك)، هل ترى هذا الصعود في درجات النور والبركة؟ (و أعوذ بك منك)

فيا أيها العامل لدين الله عبادة لله: شمّر الساعد وجدّ في العمل وأخبت القلب وإياك أن تقول وصلت، واسبح ما قدرت في درجات النور والبركة، فأنت مع الله وبالله وفي الله، (و الله على كل شيء قدير).

كن على يقين أنّك على الحق **ولكن** بحبٍّ أن يريك إيّاه.

كن على يقين أنّك على الحق **ولكن اسأله** أن يريك ما يثبّتُ قلبك ويطمئنه.

كن على يقين أنّه لن يصيبك إلا ما كتب الله **ولكن اسأله** العفو والعافية.

كن على يقين أنّ عين الله تراك وترعاك **ولكن اسأله** أن يكشف لك حبّ المؤمنين وخبث المنافقين.

وفي كل حال إيّاك أن تنسى ذكر الله والدّار الآخرة.





الحديث الثاني والثلاثون

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: بينما نحن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم جلوس فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (بينما أنا نائم رأيتني في الجنّة، فإذا امرأة تتوضّأ إلى جانب قصر، فقلت: لمن هذا؟ قال: هذا لِعُمَر، فذكرت غيرته فولّيت مدبراً) فبكى عمر وهو في المجلس ثمّ قال: "أو عليك يا رسول الله أغار؟"

مراعاة خواطر الأحبة خيل الوداد، ومعرفة نوازعهم حبل القياد، وبناء أمة الإسلام وجماعات الحق قائم على الاختيار (فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر) فلا سلامة لهذا البناء إلا بود عميق بين القادة والجموع، فلا ينظر القائد إلى حقه عليهم فقط بل ينظر إلى واجبهم عليه، فليحظ بدمعة العين وخفقة القلب وقشعريرة البدن منهم، فلا يزعج خواطرهم ولا يثقل عليهم بوطأة القيادة، حتى لو كان من أحب الناس إليهم، فإن النفوس تنفر من التهجم الكثيف الثقيل حتى لو كان مطراً من عسل، بل حاله معهم كنسمة الريح وعلى وجنة الطفلة البهية.

لا قيادة صائبة دون خبرة عميقة بالرجال، ومعرفة مستوياهم وقدراهم، ومراعاة هذه القدرات، فأبوا ذر خير من أقلت الغبراء وأظلت الخضراء في صدق اللهجة منه لكنه ضعيف على الإمارة في زمن الصحابة رضي الله عنه، ويعلم منه الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم قبول الحق وإن كان على خلاف ما يحب فيواجهه بذلك، ويعلم ضعف غيره عن الإمارة فيعرض عنه ويقول: (إنّا لا نولّي هذا من سأله ولا من حرص عليه).

هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو حبيب القلوب، يفديه صحبه بأرواحهم، وهو أحب إليهم من أنفسهم وأهليهم وأموالهم، ومع ذلك يراعي خواطر أصحابه حتى ما يؤذيهم بشيء، بل يتودد لصغيرهم سائلاً إياه عن طائره اللاعب به (يا أبا عمير، ما فعل النغير) رقة تذوب لها الجبال، ويتودد لكبيرهم حتى يعرفوا ذلك منه أنه رقيق رفيق ليس بجبار يقول المسور بن مخرمة: قال لي أبي: يا بني إنه بلغني أن النبي صلى الله عليه وسلم قدمت عليه أقبية فهو يقسمها، فاذهب بنا إليه، فذهبنا، فوجدنا النبي صلى الله عليه وسلم في منزله، فقال لي: يا بني ادع لي النبي صلى الله عليه وسلم فأعظمت ذلك، فقلت: أدعو لك رسول الله؟ فقال: يا بني، إنه ليس بجبار، فدعوته فخرج وعليه قباء من ديباج مزرر بالذهب، فقال: (يا خرمة، هذا خبّأته لك)، فأعطاه إياه، قال المسور: فنظر إليه النبي صلى الله عليه وسلم فقال: (رضي مخرمة).

وكذا على المحبين أن يراعوا خواطر الكبار وحاجاهم فلا يرهقوهم، فإن للناس حاجات مع أنفسهم وأهليهم، وقد عاتب الله أقواماً أكثروا على رسول الله صلى الله عليه وسلم في إطالة الجلوس في بيته دون مراعاة حاجته



لأهله وتفرغه لهم فقال سبحانه: (يا أيّها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النّبي إلا أن يؤذن لكم إلى طعام غير ناظرين إناه، ولكن إذا دعيتم فادخلوا، فإذا طعمتم فانتشروا، ولا مستأنسين لحديث، إن ذلكم كان يؤذي النّبي فيستحي منكم والله لا يستحي من الحق)، وهكذا تستقيم المعادلة بين القيادة والجموع، مبادلة حب بحب ووداد بوداد.

هذه الرحلة رحلة طاعة لله، رحلة تسجل فيها مقادير الذر (فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شرّاً يره) رحلة فيها الكلمة ترفع صاحبها إلى أعلى الجنان أو تحطه إلى قرار الجحيم، رحلة فيها حركة يد على رأس يتيم بعطف تكفر السيئات، وبسمة في وجه الصديق تكتب في الميزان، وجرعة ماء في فم كلب تدخل الجنة، ورفع حجر عن طريق المسلمين حسنة، وأمنية في القلب أن يصيب مسلم خيراً تحط سيئات، إنها رحلة لا تترك الشر حتى يعظم ولا تحتقر الخير مهما صغر، بل هي رحلة فيها رقة تشف حتى لا يخفى منها شيء، ولا يستبعد منها شيء.

ونفوس الخلق دقيقة الميزان تبهجها كلمة مارة، أو خفقة حانية، أو وجه بشوش يلاقيه، وتزعجها كلمة جافة أو إعراض وجه مهموم أو إلتفاتة خد بعيداً عند اللقاء، فهكذا الإنسان لا يباع قلبه ولا يتأثر بالجبال ولا بالقيود ولا بالأسوار، لكنه يأنف القياد ويوطئ النجاح للكلمة الحسنة والبسمة المشرقة والهدية مهما كان شأنها، فلا تحقرن شيئاً من هذا، ولا تكن غلظاً فتَكْسِر وتُكْسَر بل كنسمة الهواء لا يحجبها شيء ولا يكرهها أحد إلا المريض.

وصفة نافعة:

عند السحر –فهو وقت التطبب الموصوف في الكتب– وأنت تغتسل بطهور الاستغفار، اخلط معه هذه الكلمات: "اللهم اغفر لي ولكل من أحسن إليّ من المسلمين، اللهم اغفر لي ولكل من آذيته من المسلمين وأنا ظالم له واجعل دعائي كفارة لذنبي وصلة بيني وبينه، اللهم اغفر لي ولكل من آذاني من المسلمين وهو ظالم لي".

كررها وأنت ساجداً ثلاثاً، ثم بسمة في الوجه عند لقاء الإخوان وكلمة حسنة تبيتها لهم وقد نقعتها بالفكرة، ستجد أن أموراً في حياتك قد صلحت، فإن زاد المرض فاشدد عليه بالهدية سيزول بإذن الله.

لكن إن لم ينفع كل هذا فتذكر: الأرواح جنود مجندة، وتذكر حب مغيث لبريرة وبغض بريرة لمغيث، وفي الجنة فقط تصلح القلوب من كل آفاتها.





الحديث الثالث والثلاثون

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النّبي صلى الله عليه وسلم: (لا يأتي ابن آدم النّذرُ بشيء لم أكن قدرته، ولكن يلقيه النّذرُ إلى القَدَر قد قّدر له، فيستخرج الله به من البخيل، فيؤتيني عليه مالم يكن يؤتيني عليه من قبل).

لا إثبات إلا بشرع صحيح أو قدر محسوس مضطرد، وخلاف ذلك أوهام وتخرص، وباب التديُّن البدعي فتح أبواب الأوهام على مدار التاريخ، وقضية ارتباط الغيب مع عالم الشهادة إن لم يضبط بضابط متين تحول إلى مرض يفسد العقول والحياة، والتوازن بين ما هو شرعي وما هو قدري تضبطه السنة النبوية وجريان السنن واضطرادها، فطغيان أحدهما على الآخر مزلة أوقعت الفرق العلمية والمتعبدة في ضلالات وانحرافات، فقوم أتقنوا الكونيات وراعوا سننها وضلوا في الشرعيات والإلهيات والغيبيات فحرموا التوفيق الإلهي، فساروا سعداء حيناً ثم وقع بهم المكر الإلهي، وقوم عظموا الإلهيات والشرعيات وضلوا في القدر والتكوين و لم يقيموا لسننها شأناً فحلت بهم عوامل التخلف والهزيمة والخرافة، وهذه الطائفة الثانية هي التي غلبت في تاريخنا زماناً فصرنا إلى ما صرنا إليه، ونحن نحسب أننا على شيء، إذ صار الحديث عن الطبائع الخَلقية والسنن الكونية باب مصادمة للدين وتعظيم الإله، والشيء إن فسد انقلب على نفسه بالهلكة، فبالتالي انقلب هذا التدين الجاهل حجة عند الزنادقة، إذ اعتبروا أن مصدر ما نحن فيه هو الدين وقيم الحق الإلهية، وعيّروا أهل الإسلام أن غيرهم يعيشون في سعادة وبحبوحة، وذلك لجريان سنة التزيين لما أشرب القلب (و كذلك زيّنا لكلّ أمّة عملهم)، فالذين يعيشون على هامش الحياة ودائرة الهزيمة والخذلان يفتخرون أنهم يعلمون حقائق الكون وأسراره، ويسبحون في الأنوار الحقيقية لا الزائفة، والآخرون استغنوا عن غير هذه الدنيا، ورأوا الآخرة وهماً لا واقع له.

(المكر الإلهي) قضية يجب أن نعيها، وأن نكون على حذر منها، لأن عمادها الجهل والغفلة، ففي حديث الباب مثلاً يرى رجلاً اشترط على الله –نذر– إن فعل الله به أمراً أن يتصدق أو يقوم بعمل صالح، فوقع القدر على ما طلب، لا بسبب شرطه، ولكن لجريان القدر على أمر آخر لم ينتبه له، فذهب المسكين في وهمه أن شرطه –نذره– هو سبب الوقوع، فذهب يعمل صالحاً، فاستخرجت منه الصدقة على بخل منه.

(المكر الإلهي) في هذا الباب يقع على ثلاثة مستويات:

١. ترك العمل السنني الملائم.
٢. جريان السنن على الوجه المتوقع المحبوب.
٣. تحليل الحديث على وجه الهوى / الرغبة، فتحصل الفتنة.



فهذه كما نرى أساسها ترك العمل ووقوع الجهل، فهي لها تعلق بالعلم والإرادة.

ومن رحمة الله فيمن يرحمه الله أن يقع المقدور على وجه يعيد ترتيب العلم على الوجه المطلوب، ويصلح العمل ليوافق الحق، كما وقع مع الصحابة رضي الله عنهم في أحد، إذ هزموا هزيمة جعلتهم يتساءلون: (أنّى هذا؟) فكان الجواب الإلهي: (من عند أنفسكم).

حين ترى النعيم الدنيوي في يد عدو الله فلك أن تقول: " طيباتهم عجلت لهم " لكن أن تراهم هازمين لنا، مستعلين على ذلتنا فمن الإفتراء على حكمة الله أن تقول هذه الكلمة، بل الكلمة الصحيحة: (من عند أنفسكم) لنحذر تديناً وخوفاً من الله تعالى أن نتكلم في حكمة الغيب على الأمور الحادثة، فالأعمال لا تثبت صحتها بالتوافق مع اللحظة الراهنة، فحين تنفق السلعة بالحلف لا يدل هذا على جواز الحلف في البيوع أو استحبابه، بل الحلف في البيع وإن كان للسلعة إلا أنه محق للبركة.

في موقعة أحد مثال حي على ما نحن فيه من أن جرّ (التحليل والتفسير) على وجه الهوى ضلال وفساد، فقد وقع في أحد أن أشار بعض الصحابة رضي الله عنهم على رسول الله صلى الله عليه وسلم أن لا يخرج من المدينة لقتال قريش، وكان هذا رأي المنافقين كذلك، وبعد أن نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم على رأي الكثير من أصحابه وخرج إلى أحد مع رغبته عن هذا الرأي صلى الله عليه وسلم، فكان أن انتصر المنافقون لرأيهم (و هو رأي صواب ولكن اختير غيره وهو أقل صواباً منه) ورجعوا من وسط الطريق وتخلوا عن إخوانهم في المحنة، ثم وقع ما وقع من القتل في الخارجين، فكان ماذا؟

وصف القرآن (تحليل وتفسير) المنافقين بقوله:

١. (يا أيّها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين كفروا وقالوا لإخوانهم إذا ضربوا في الأرض أو كانوا غزّى لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا ليجعل الله ذلك حسرة في قلوبهم والله يحيي ويميت والله بما تعملون بصير، ولئن قتلتم في سبيل الله أو متّم لمغفرة من الله ورحمة خير ممّا يجمعون، ولئن متّم أو قتلتم لإلى الله تحشرون).

٢. (و ما أصابكم يوم التقى الجمعان فبإذن الله وليعلم المؤمنين، وليعلم الذين نافقوا، وقيل لهم تعالوا قاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا قالوا لو نعلم قتالاً لاتّبعناكم، هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان، يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم والله أعلم بما يكتمون، الذين قالوا لإخوانهم وقعدوا لو أطاعونا ما قتلوا قل فادرؤوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين).

هذا تحليل باطل وإن توافق مع الحدث، وبطلانه مبني على الهوى والشهوة والخوف من الموت، والهزيمة في أحد لم تقع لأن رأي الخروج كان باطلاً بل لأن في الخروج حدثت معصيتان:



أولاهما: مخالفة أمر القائد في ترك الرماة مواقعهم حباً للدنيا من جمع الغنائم، وهذا سجله القرآن بقوله: (حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون، منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة ثم صرفكم عنهم ليبتليكم، ولقد عفا عنكم والله ذو فضل على المؤمنين).

ثانيها: ما حصل من التولي والهروب عن ميدان المعركة، وهذا سجله القرآن بقوله: (إنّ الذين تولّوا منكم يوم التقى الجمعان إنّما استزلّهم الشيطان ببعض ما كسبوا ولقد عفا الله عنهم والله غفور حليم).

وهاتان معصيتان قد غفرهما الله كما في الآيات العظيمة السابقة.

وسجل القرآن حال قوم صار في قلوبهم بعض رذاذ شبهة (تحليل) المنافقين فقال: (و طائفة قد أهمّتهم أنفسهم يظنّون بالله غير الحقّ ظنّ الجاهليّة، يقولون هل لنا في الأمر من شيء، قل إن الأمر كله لله يخفون في أنفسهم ما لا يبدون لك، يقولون لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ههنا، قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم).

والمتأمل في الآيات التي نزلت بعد موقعة أحد يجد أن القرآن هوّن موضوع القتل وفسره على نحو يذهب ما في النفوس من ألم، ولكن شدّد على موضوع المعصية، وكأنه يقول: أنتم تبكون القتلى، وتصرخون من ألم الجراحات وذهاب الإخوان، ولكن هذا ليس بشيء، فكل هذا كان سيحدث سواء خرجتم إليهم أم لم تخرجوا لكن اذهبوا بعيونكم إلى هناك، إلى ما وقع من أعمال منكم (قل هو من عند أنفسكم).

إن (التحليل السياسي) قد ملأ في أيامنا هذه السهل والواد، وهو سهل على الأقلام والعقول الجاهلة، لكنه لا يحمل أي السمات العلمية المعروفة في قواعد العلوم، فهو مضطرب، يستطيع كل صاحب فكرة أو عقيدة أن يجره إلى مصلحته، ولكن كل ذلك لا قيمة له، إنما الأهمية النظر إلى تحقق الحكم الشرعي أم لا؟ من الكبائر المعاصرة والبدع الحادثة هو تعليق الحكم الشرعي على هذا (التحليل) المتوهم، وذهبت جهالات قوم بهم أن جعلوا هراءهم هذا (علة) للأحكام الشرعية افتراءً على الله وعلى الفقه الشرعي وأصوله، ولذلك كثر الخلاف وعم الجهل، وصار هؤلاء (المحللون) في عقول البعض هم الفقهاء الذين يحق لهم القول في مصير الأمة وقضاياهم، وهم قادة الفقه الجاهل المعاصر، وهؤلاء لو حضروا إبراهيم عليه السلام وقد كسر الأصنام لكتبوا فيه تقريعاً ولوماً، ولو حضروا أهل الأخدود لقالوا لهم من الرخص ما يحل لهم الكفر والخروج من الملة، ويضحكوا بملء أشداقهم استهزاءً بقول الرضيع لأمه: " يا أماه إنك على الحق "، ولقالوا: لم يعد إلا أن تطيع الحركة أقوال الأطفال، ولو حضروا الخندق لكانوا مع القائلين: (غرّ هؤلاء دينهم).

في هذا الباب نرى فقه الشرع عند الخلاف حول آراء تتضارب: أنفعل أم لا نفعل؟ فبعد أن تطمئن قلوب الإخوان لعمل ما فمن النفاق التخلي عنهم، ومن النفاق تقريعهم إن حصل خلاف ما أشاروا به، والواجب النظر: هذا الذي اخترناه من الأقوال هل قمنا به على الوجه صحيح أم لا؟ فالبحث يكون عن اتقان العمل لا غير، وأما



البكاء على المصيبة واستغلالها لتعظيم الذات وتقريع الإخوان، و(تحليلها) وتفسيرها على الوجه يبطل الحكم الشرعي من الجهاد وغيره فهو سمة المنافقين.

الحلال ما أحله الله، والحرام ما حرمه الله، وكذب الخراصون، وليس في الحكم الشرعي إلا الخير، لكن ما يقع عند تطبيق الحكم الشرعي من اخفاق في أحيان ما فسببه ترك الإتقان في تطبيق هذا الحكم أو التخلي عنه قبل اكتماله، وأما الخير فلا يأتي إلا بالخير.

كذب الخراصون وإن وقع المقدور حيناً على وجه يوافق تحليلهم، فماشأنهم إلا شأن (العرافين)، فكلامهم كثير أغلبه باطل وقد يصدق في الكلمة الواحدة، فالشرع أن نجعل كلامهم باطلاً لا أن نسحب ما أصابوا به على كثير كلامهم الباطل.

تتمة:

بعد المصيبة في أحد، أمر سول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه أن يتابعوا قريشاً ففعلوا حتى "حمراء الأسد" وقد سجل القرآن هذه المكرمة للأولياء بقوله: (**الذين استجابوا لله وللرسول من بعد ما أصابهم القرح للذين أحسنوا منهم واتّقوا أجر عظيم، الذين قال لهم النّاس إنّ الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل، فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتّبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم**).

الصورة كالتالي: خروج حدثت به مصيبة ومقتلة في الخارجين، وعلق (محللون) المصيبة بسبب الخروج، وقد كان رأيهم أن لا يخرجوا، فماذا سيقولون الآن وهم يرون القيادة ومن والاها وهي جريحة مصابة تتابع اللحاق بالأعداء فيا للعجب: خروج للقاء جرّ هزيمة، فماذا سيكون حال من لحق المنتصر المزهو وهو جريح ضعيف؟!

أنا أعرف أن (المحللين) لن يقولوا شيئاً من السوء عن أحداث السيرة النبوية، وذلك هيبة لصاحبها، لكن ليتهم يفقهون!!





الحديث الرابع والثلاثون

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (تجدون النّاس معادن، خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا، وتجدون خير النّاس في هذا الشأن أشدّهم له كراهية، وتجدون شرّ النّاس ذا الوجهين، الذي يأتي هؤلاء بوجه ويأتي هؤلاء بوجه).

لا دين نافع إلا بعقل راشد حكيم، ولا عقل صحيح إلا بفقه مكين، والخيرية لا تكون بنص معلق في أعناق أغبياء مغفلين، كما لا تكون من غير معرفة الحلال والحرام، وفي الجاهلية عقول سليمة في معدنها، صقلتها حكمة الحياة وتجارب السنين وعظة الأيام، هم خير هذه الأمة إن أسلموا وفقهوا أحكامه، فالدين الحق لا ينفع إلا إذا وضع في وعاء حكيم رشيد سوي، وهو العقل، وأما وعاء الغباء والسفاهة فالدين ينجيه لنفسه لكن لن ينفع غيره ولا يجوز أن يكون له الخيرية في أمة الإسلام ولا جماعات الحق، فكيف إذا اجتمع في المرء خصلتا الباطل، فلا فقه عميق بل هي الألفاظ وحفظ النصوص بلا علم بها، ولا حكمة أهل الجاهلية؟! حينها ولا شك الخراب والفساد.

ثم إن هذا الدين لا يقوم به إلا الذين يأخذون الأمور –كل أمور الحياة– بجدية وتفاعل حقيقي، أما الذين يريدون إرضاء كل الأطراف، ويداهنون كل المختلفين، فالقيم عندهم نسبية، والقرارت متلونة، فهؤلاء لا نفع فيهم لهذا الدين.

الدين هداية، لكن لا ينفع مع آلة هي فاسدة في تركيبها، كما أننا نعلم أن هذا الدين نور كنور الشمس لكن لا ينفع هذا النور مع الأعمى، فلابد من نور العين ونور الشمس ليقع الإبصار، وكذلك هداية الشرع لا تنفع بلا رشد العقل وحكمته، والعقل الرشيد الحكيم لا يضطرب في أي موضع كان فهو معدن نفيس إن كان قدره مع أهل الجاهلية كان خيرهم وأنفسهم، وإن كان مع أهل الإسلام كان خيرهم وأنفسهم، فهو عقل أصيل في معدنه لا يتلون بالزور ولا بالمخادعة، بل هو ثبت لثبات قيم الحكمة والرشد فيه.

هل هناك فقيه غبي؟ الجواب نعم، كما هناك حكيم كافر، فحصول الكمال ممنوع بموانع خاصة لكل حالة، فلا ينبغي أن نثبت الحكمة لكل فقيه، كما لا نثبت الحق مع كل حكيم، وخير الخيرين هو الفقيه الحكيم العاقل الرشيد، كما أن شر الشرين بعد الفقيه الغبي والحكيم الكافر هو ذو الوجهين، أي استخدام العقل في تبرير كل فعل وقول وحمله على وجه القبول والرضى، ويسمون هذه حكمة كذباً وزوراً عليها، إنما هي النفاق والثعلبة، فالحق واحد لا يتعدد، وقد قامت حكمة السماوات والأرض مع التفريق بين الخير والشر وبين العدل والظلم وبين الإسلام والكفر. (خير النّاس في هذا الشأن أشدّهم له كراهية) هؤلاء قوم لا يحبون المخاتلة، فهم يعطون ما



يؤمنون به كل شيء، ويبغضون ما يكفرون به إلى النهاية، إرادتهم لا تقبل المناصفة بل يذهبون مع إيمانهم إلى النهاية، كما لهم أن يكونوا مع دين الله ومع جماعة الحق، فحينها يحملون هذا حق الحمل، ويعطونه كل أنفسهم ويحاربون أعداءه إلى آخر رمق (تقاتلونهم أو يسلمون) فهم يبغضون اعداءه كل البغض كما يحبون أصحابه كل الحب، فهذه منطقة لا تقبل القسمة، فبئس أصحاب نسبية الحق في هذا الباب كم افسدوا دين الله وحياة الناس.

لو راجع الناس تاريخ هذه الأمة فلن يجدوا أي مكرمة قدمها (المداهنون) ولا دعاة أنصاف الحلول، بل كل المكرمات سجلها أصحاب المواقف الواضحة الجلية، والآخذون بـ(الرخص) لهم سعة لأنفسهم لكن لن يقدموا للأمة شيئاً، ولا تنتفع الأمة بهم، ففي محنة خلق القرآن إتقى من إتقى خشية السيف أو السجن أو الضرب ووسعه الأمر، لكن حسم المعارك والقضايا كان بيد من أظهر وواجه وتحدى، نعم أصابه ما أصابه لكن هذا هو الطريق، إيذاء وإبتلاء ثم نصر وتمكين، فإذا كانت (الرخص) لا تنتفع الأمة من أصحابها فإذاً سيكون شأن (المداهنين) ممن يريدون إرضاء كل الأطراف على حساب الحق وقيمه، وعلى حساب الدين والإسلام؟ إنها بلا شك جريمة تعود على دين الله وأمة الإسلام.

فهذه خصال الخيرية، فمن أراد الفضل فليسعى إليها:

١. عقل رشيد حكيم.
٢. فقه مكين عميق.
٣. صلابة في الحق ومواقف ثابتة.

وشر الناس المتلون، فإن اجتمع معه قوة البيان فهي الطامّة الكبرى، والفاقرة التي اجتمع فيها كل مقومات الفتنة للأمة.

وفي الحديث فقه رائع وهو قضية استخدام (الأرشيف)، فالتاريخ سلاح عظيم لكن وضعه في غير موضعه مفسدة وقلة دين، فهذا رجل كان شديد الكراهية للحق ثم لحق به فلا يجوز أن يُحَمّل وزر أيام خلت، يُقرع بها كلما سنحت لخصومه بادرة خلاف، فقد عاب القرآن على مثل هؤلاء بقوله: (كذلك كنتم من قبل فمنّ الله عليكم)، وقد عُلم من ديننا (إنّ الحسنات يذهبن السّيئات) ذلك ذكرى للذاكرين.

إضاءة:

تأمل يا عبد الله روعة الحديث في تسمية الناس (معادن)، وتسمية ما يعتري هذه المعادن من تزوير بقوله: (ذا الوجهين) ترى نور النبوة بادياً على مثل هذه الحكم العجيبة.





الحديث الخامس والثلاثون

عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (بينما امرأة ترضع ابنها إذ مرّ بها راكب "ذو شارة" وهي ترضعه فقالت: اللهم لا تُمت ابني حتى يكون مثل هذا، فقال: اللهم لا تجعلني مثله ثمّ رجع في الثّدي، ومُرَّ بامرأة تجرَّرُ ويُلعب بها، فقالت: اللهم لا تجعل ابني مثلها، فقال: اللهم اجعلني مثلها، فقال: أما الرّاكب فإنّه كافر (جبّار من الجبابرة)، وأمّا المرأة فإنّهم يقولون لها: تزني، وتقول: حسبي الله، ويقولون: تسرق، وتقول حسبي الله).

يقولون: لا دخان بلا نار، لأن صناعة الدخان بلا وجود أصلِه ليس من سنن الخلق، لكن صناعة الأكاذيب هيّن على الألسنة، فتشبيه الإشاعات بالدخان من كل وجه باطل، هي كالدخان تشيع وتزكم الأنوف، وهي كالدخان كذلك حين تطمس الحقائق وتخفيها لكنها تصنع من معدن الكذب والزور والأوهام، لكن الدخان لا يكون بلا نار، والعقلاء ليسوا قطيع بقر تجري عليهم نزعة القطيع، فما أسهل أن تشيع الكلمات على الألسن، وكثرة المرددين من الغوغاء لا يزيد الكذب إلا بطلاناً، والكثرة التي عمادها –زعموا– أو دليلها: "سمعت الناس يقولون فقلت" هم حطب الفتن وأثافي النيران التي تقوم عليها قدور الخبثاء، و"المغفلون النافعون" هم مطايا الشر في أمة الإسلام، يتخذهم الشيطان عوناً وهم يحسبون أنهم على خير تحت دعوى الطهر والتنقية وكشف الحقائق.

هذه الملايين من البشر يعتقدون أن عيسى هو ابن الله تعالى فهل لكل اعتقاداهم وكتبهم وصلواهم تأثير في تغيير الحقيقة وهو أن عيسى عليه السلام بشر يأكل ويشرب ويموت ويمرض؟ ثم هذه الملايين على مدار التاريخ، جموع وراء جميع يعتقدون أن البقرة روح مقدسة فهل زادت هذه الجموع شيئاً سوى أن البقرة حيوان لا غير؟ ولو سألت هؤلاء جميعاً ما دليلكم لكان جواهم: الجموع، القطيع، لقد وجدنا الجموع تقول فقلنا، وهكذا يحيون ويموتون ويقاتلون على هذه الأكاذيب والإشاعات.

أمة الإسلام وجماعات الحق مستهدفة، يُكاد لها بالليل والنهار، ولأعدائها خبرة عميقة في الكيد وصناعة الفتن والأكاذيب والإشاعات، ولا يبطل كل هذا الكيد إلا بالأدلة التي أقامها الله نوراً كاشفاً للحقائق، فهذه فتنة (الإفك) الكبرى، فتنة ضربت بيت الطهر والعفاف، وتولى كبرها النفاق ورجاله، وسارت على ألسن البعض ممن استزلهم الشيطان، وأهل الدين والورع انقسموا إلى قسمين كما ورد على لسان أسامة بن زيد بن حارثة وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهما: فعلي قال: يا رسول الله، لم يضيق الله عليك والنساء سواها كثير، وأما أسامة فقال بما يعلم من براءة عائشة وبما يعلم من حب رسول الله لها، فهذه الفتنة لو نزلت بالناس بعد الوحي فما هو أقل ما



يفعل الرجل بأهله، سيقال له أدنى الأمر أن تطلقها اتقاء الفتنة ومقالة السوء، وبعد ذلك ماذا سيرد كلام الناس وإشاعاتهم وأقوالهم، فحسبنا الله كم تفعل الأكاذيب، وكم تظلم الحق وأهله.

الإشاعة في ذلك الزمان ساذجة بسيطة، لكن ما نصنع اليوم وقد صارت علماً يدرس في أقبية الخبث، وصارت فناً متراكباً يقدم لها ما عهد لها، ولها وسائل دخلت كل البيوت من مذياع وتلفاز و"كمبيوتر" وصحف سيارة، وتكرر كل يوم على الأسماع والعقول والقلوب حتى إن المرء ليسمعها أكثر مما يسمع اسمه أو اسم أبيه؟!

ماذا يقال اليوم عن الجهاد وأهله؟ وماذا يقال عن دعاة الحق والدين؟ وماذا سيقال عن المتمسكين بالسنة والشريعة؟ وكيف تصور المرأة المسلمة الحصان الرزان؟ أفلام تنتج، واستهزاء قبيح مؤلم، وصحف يقوم عليها مأجورون مأبونون، والغوغاء قطيع يسير وراء الناعقين إلى جهنم وتدمير الذات.

إني أتكلم في هذا الموطن وفي القلب ألم –شهد الله– لعلمي أن كل ما سأقوله من موجبات شرعية لرد الإشاعة ضعيف أمام كيد الذين قال الله عنهم: **(و إن كاد كيدهم لتزول منه الجبال)** فوالله إن حادثة الإفك التي جعلت رسول الله صلى الله عليه وسلم يدخل على حبيبته التي يعلم براءتها كعلمه بنفسه ويقول لها: **(أمّا بعد يا عائشة، فإنه قد بلغني عنك كذا وكذا، فإن كنت بريئة فسيبرئك الله، وإن كنت ألممت بذنب فاستغفري الله وتوبي إليه، فإن العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب إلى الله، تاب الله عليه)** لأمر يجعل الإشاعة شديد الوطأة عظيم.

فمن منا يستطيع أن يقول اليوم لمتهم متألم: **(إن كنت بريئاً فسيبرئك الله)** وقد انقطع الوحي من السماء، فحسبنا الله ونعم الوكيل.

ماذا يملك اليوم أهل التوحيد ودعاته والمجاهدون في سبيله من الوسائل للوقوف أمام طغيان آلة الكذب والإشاعة الفاجرة؟ علماؤهم في السجون أو مقهورون معزولون ممنوعون من الظهور، المجاهدون مطاردون في كل فج، المحبون لهم متخفون على خوف وترقب، فأي معادلة هذه والأعداء يملكون كل السبل ويقفون على كل الصعد؟

اللهم رحمتك وفقط، فإن هذه معركة أقولها بكل ألم معركة مؤلمة وعوامل الخسارة فيها جلية، لكن يربط القلوب أن العاقبة للمتقين.

اثبت هنا حديث الإفك، فوالله ما قرأته إلا وبكيت، والعظات فيه كبيرة لمن تفكر واعتبر إذ أن هذا الباب لا يسع المرء فيه إلا أن يضع القلم فيه ويستغفر ويلتجئ إلى الله طالباً العون والمدد. (حديث: ٤٧٥٠ / البخاري)





الحديث السادس والثلاثون

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (شر الطعام طعام الوليمة يدعى لها الأغنياء ويترك الفقراء).

شتان من يأتيك جائعاً متلهفاً، وبين من يأتيك مستملحاً بطراً، وشتان من يأتيك ليضع الطعام على الطعام ومن يأتيك مع فراغ الإناء، فشرط الإنتفاع كما قالوا فراغ المحل، وقد كثر في زماننا البطرون، لهم أرجل كلت من المشي للتذوق فقط، كلما سمعوا دعوة لوليمة قالوا هيا لنذوق ولنشم، ثم نضحك ونستهزئ، ونمد أرجلنا لا أيدينا في الصُّحف، فطالت ألسنتهم من كثرة التذوق مرضاً، وماتت حواسهم من كثرة الإستهزاء، و لم يبق من "رمتهم" سوى عفن الكلمات وأحكام السوء وإتقان البصق في كل الصحون، لا يقوم لأهل الحق روق إلا وطافوا يبحثون عن "الكنف" فيه، تغشى أعينهم عن كل الجواهر، وتمرض أنوفهم من الطيب، فيفرون إلى تحت الآباط وجيوب الثنايا ليعيشوا هناك ثم لا يرون إلا "الرزايا".

في كل وليمة للدين يأتون إلى أطرافها مستملحين وهم يقولون: "هذه كتلك، وسترون النتيجة، اجلسوا قليلاً فلن ترون بعد كل هذا إلا الخراب" ونسي هؤلاء المتخمون بالقذرة أن تلك سنة لله في كل وليمة، إذ تقوم وتمتد كالسوق فيجني منها الخباة مطالبهم، فهذا شهيد، وهذا متصدق، وهذا بائع لنفسه ينتظر، ثم ينفض السامر فيرجع الناس إلى منازلهم كل يحمل ما التقط ولا يبقى وراءها إلا المخلفات والفتن واللواقط الرخيصة، فهذه "سوق المدينة" في زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم وقف رسول الله صلى الله عليه وسلم على شرفتها وهو يقول: (هل ترون ما أرى؟ قالو: لا، قال: فإني لأرى الفتن تقع خلال بيوتكم كوقع القطر)، وهل في تاريخ العالم قط بناء لم يصر إلى زوال؟، وهل في تاريخ الحق قط أن لم يخلف بعده شر وفتن؟، لكن هؤلاء القوم لا يفقهون.

لقد طاف سلمان الفارسي رضي الله عنه ظامئاً جائعاً باحثاً عن الحق، وتقلب على موائد كثيرة حتى هداه الله تعالى إلى مائدة رسول الله صلى الله عليه وسلم وارتفعت به همته حتى صار (سلمان منّا آل البيت)، وناس كانت المائدة تنصب أمام أعينهم بل تطرق عليهم بيوتهم فيصدونها ويركلونها بأرجلهم، فذاك الفقير المحتاج وهذا المستغني الممتلئ بالهواء كذباً، وستبقى هذه السنة جارية حتى يرث الله الأرض ومن عليها، وإن كانت في أيامنا هذه أجلى وأوضح، إذ ظن البعض أن كثرة التجارب التي يسمونها جهلاً "إخفاقات" وهي في الحقيقة أسواق ربانية عظيمة، كانت فيها الأجور والحسنات، وكان فيها العلم والتجربة والحكمة والموعظة، مات من مات فيها شهيداً محتسباً، وصبر فيها من صبر مبتلى ثابتاً، وقطف من أفنان حكمتها من تقلب في دروبها وشعبها، ظن هؤلاء أن هذه التجارب إنما هي دليل على أن العقود أولى، وأن "السب" منذ البداية هي النجاة، فالقضية محسومة لما يقولون، وبعض هؤلاء ربما مر يوماً على سوق من جنباته أو حوافه فجلس بعد ذلك مجلس "الحكيم" يعظ على



كل صعيد وكل وليمة ربانية: أقول لكم... قلت لكم... سترون قريباً... لقد جربنا قبلكم... حشاء ممقوت من بطن متخم بالجهل. ثم... يدعون إلى ولائم "النقد" ليتحدثوا حديث "الحكماء" و"الحنكة" ويدعى لتلك "الولائم" الهالكون في جب الكلمات ليتذوقوا ويتحدثوا ويسمروا على موائد الغيبة والنميمة، والولائم الربانية تشتعل بوقود الفقراء، وتوقد بحبات قلوب أحبت الجنة والحور العين، (و كأيّن من نبيّ قاتل معه ربيّون كثير فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا والله يحب الصابرين، وما كان قولهم إلا أن قالوا ربّنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين، فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة والله يحب المحسنين). فسبحان ربي كيف قسم بين العباد؟

القيادة لا تعجبهم فقالوا: لولا (أنزل على رجل من القريتين عظيم) فهذا رجل (مهين ولا يكاد يبين) و(نحن أحقّ بالملك منه، ولم يؤت سعة من المال) والفقراء يقولون: (ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء).

قالوا: من هؤلاء؟ "فقراء" فلو كان خيراً ما سبقونا إليه، يُضحك عليهم بذكر الجنة والنار، والرغبة بالحور العين، ولكن أهل النظر والفكر والتجارب المحبطة والفقراء يقولون: (إنّما يستجيب الذين يسمعون والموتى يبعثهم الله ثم إليه يرجعون).

قالوا: أتريدون منا أن نؤمن كما آمن هؤلاء، بمجرد أن يقال لنا آية أو حديث، أو يخطب فينا خطبة حماسية من تاريخ ذاهب أو ذكر لحورية حتى نهب وقوفاً، لا، والفقراء يرددون قوله تعالى عن هؤلاء: (و إذا قيل لهم آمنوا كما آمن النّاس، قالوا أنؤمن كما آمن السّفهاء، ألا إنّهم هم السّفهاء ولكن لا يعلمون).

قالوا: مجالسنا خاصة نتداول فيها ألفاظ العباقرة، ونلوك فيها جمل الحكماء، فهي مجالس الخاصة، حيث يدار فيها "شمول" النقاء الفكري، فننشق مقولة مسيو ومستر، فمالنا مجالس ليس فيها إلا "السنة كذا" و"دين الله كذا" و"حكم الله كذا" فهذه مجالس العامة والرحماء، والفقراء يرددون قوله تعالى: (و لا تطرد الذين يدعون ربّهم بالغداة والعشيّ يريدون وجهه).

إي والله: شتان من يأتي للتذوق والسمر ومن يأتي بغير زاد وهو ظامئ إلى جنة الله تعالى، لكن أهل التوحيد والجهاد يقولون لهؤلاء المتخمين: سنبقى فقراء وببطون خمصة نطير إلى كل هيعة ينادى فيها إلى الجنان، ننغمس فيها إلى آذاننا لعلنا نبلغ الجنان والحور العين، ولا عليكم فابقوا أنتم لتجمعوا وراء كل هيعة الفتات والبقايا لتشيدوا منها دليلاً جديداً على أن قعودكم أنجاكم من الموت بلا ثمن كما تزعمون (الذين قالوا لإخوانهم وقعدوا لو أطاعونا ما قتلوا، قل فادرؤوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين، ولا تحسبنّ الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربّهم يرزقون، فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألاّ خوف عليهم ولا هم يحزنون، يستبشرون بنعمة من الله وفضل وأنّ الله لا يضيع أجر المؤمنين).





الحديث السابع والثلاثون

عن كعب رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (مثل المؤمن كالخامة من الزّرع، تفيئها الرّيح مرّة، وتعدلها مرّة، ومثل المنافق كالأرزة لا تزال حتى يكون انجعافها مرّة واحدة).

رياح عاتية ووحوش ضارية وجيوش كمد القاموس قد أتت وذهبت وبادت و"خامة الزرع" الصغيرة باقية، فما أعجب روح الإيمان وعصارة الحق، وما أضعف رياح الباطل والغرور.

"خامة صغير عطرة" لينة بخضرها، قوية بثباها، تدخلها العين وتطمع بها النفوس الشبعة وتستصغرها الأنظار البهيمية، فتأتيها "الرياح" "لكنها هواء" لتحطيمها وغيظها وتدميرها، فتميل هذه "الخامة اللينة"، تميل كما قال تعالى: (إذ تصعدون ولا تلوون على أحد والرسول يدعوكم في اخراكم فأثابكم غمّاً بغمّ لكي لا تحزنوا على ما فاتكم ولا ما أصابكم والله خبير بما تعملون).

تميل هذه الخامة "الخضرة القطرة اللينة" ليقول الله لها: (إن يمسسكم قرح فقد مسّ القوم قرح مثله، وتلك الأيام نداولها بين النّاس، وليعلم الله الذين آمنوا ويتّخذ منكم شهداء، والله لا يحبّ الظّالمين، وليمحّص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين، أم حسبتم أن تدخلوا الجنّة ولمّا يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصّابرين).

تميل هذه "الخامة الصغيرة اللينة":

١. لأنها سنة الله في تداول الخلق، فالسنة فيها أن تميل هي، والسنة في غيرها أن تنجعف مرة واحدة.
٢. لابدّ من اختبار عصارة الفروع وروحها وجوفها، فالغصن ليس بطوله ولا بغلظه لكن بروح الخضرة فيه التي تعطيه القوة والليونة، فتسقط الفروع النخرة في فتنة الإبتلاء وتبقى الفروع الأصلية.
٣. ثم إن بعض الثمر قد طاب للأكل ونضج، فلابد من أن يأوي إلى الجرين (ليتّخذ منكم شهداء).

وتمضي السنة مرة بعد مرة، قرون تأتي فتخرق في الجوانب ويتفجر الدم والألم، ويبدأ التطبب والإحياء وإعادة الروح والبناء، سنة لا تأبه لجاهل يصرخ إذ يرى هذا الأمل عذاباً بسبب استعداء هذه الخامة التي ذنبها أن ريحها طيب في أرض (و أكثرهم الفاسقون). فيصرخ الجاهل: هلا كنا كغيرنا؟! وهلا غيرت هذه " الخامة " من منهجها لعلنا نرتاح كما ارتاحت بقية الأمم؟!

مالنا نحن فقط نعيش محنة وراء محنة، وابتلاءً وراء ابتلاء؟ أين علة هذه القضية؟



قالوا: العلة في روح استعلاء هذه "الخامة الصغيرة"، فهي تتيه أن جذورها تمتد إلى كل الأنبياء وروحها من روح الله، وعصارتها من "صنع الله"، فهلا توقفت هذه "الخامة" عن هذا "الاستعداء" وصارت أرضية ككل شجر الأرض؟!

ثم ألا تخجل هذه "النبتة" من كل هذا "الادّعاء" وهي صغيرة مهينة داستها كل الأرجل، والنبتة تردد بحياء عميق (و لا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين).

قالوا: أنظروا إلى شجر الأرض، عالياً، مرتفعاً، صلباً، آمناً، سعيداً، يعيش النعيم من كل الجوانب، وكل قبحة الظاهرين قد ستر بأجمل الألبسة وبأروع الأصباغ، و" خامة الطيب الصغيرة " تمضي على وسعها وقدرتها، وعيونها إلى جنة الرضوان.

قدر هذه النبتة أن تكون "فلسطين" مأوى أفئدة كل ما بقي من حق في أديان السماء السابقة، والأرض المباركة في القرآن، وقدرها أن تكون على مرمى القلب من كل الفرق، تهب عليها الرياح مرة بعد مرة وفتنة ترمق سابقتها حتى ينزل عيسى عليه السلام، والمنافقون يقولون: بركة موهومة، وشرف مدّعى، ولقمة سائغة مع كأس مهانة خير من كل هذه الأرض.

قدر هذه النبتة أن تستر عرضها وشرفها وقيمها بعصارة أبنائها وروح مهجتها، والمنافقون يقولون: لا شرف إلا نوم هانئ وجيب مليء وروح صاحب ينسى المرء فيه نفسه.

قدر هذه النبتة أن يبارك الله في أرضها، لبناً لكل جوف، وعسلاً لكل مشته، وراحة لكل راغب، فينقمون على أهلها أنهم رعاة إبل، والنساء جوهر مستور، والعيون دوماً تراقب الشمس، والمنافقون يقولون: سينبع كل شيء في سوق النجاسة رجاء إرضاء الرياح والوحوش.

ستذهب كل هذه الأوساخ، وستأوي إلى مستقرها من الخزي والعار والعاقبة لهذه " الخامة العطرة اللينة الطيبة " وأما رياح الكفر فليست أمريكا في زماننا بأشد من التتار في زمانهم، وليس "صليب اليوم" بأصلب من "صليبهم" في الأمس، وكل ذلك قد ذهب، والعاقبة للتقوى.

(أكفّاركم خير من أولئكم أم لكم براءة في الزّبر).

ستبقى هذه "الخامة" كما هي تغري أعداءها لسحقها (و يقلّلكم في أعينهم)، فتأتيها أمم الأرض، أرتالاً وراء أرتال، قدر لا نستطيع أن ننفك عنه إلا أن نغير ديننا، قدر هذه "الأمة" هو قدر التاريخ، محنة وراء محنة، وابتلاء وراء ابتلاء، يسميها الجهلة "أخطاء"، ويظنون أن بإمكان هذه الأمة أن تترك "الاستعداء" لتعيش آمنة هانئة، تفرح فرح البهائم كغيرها من الأمم، والأمر ليس سوى "إغراء" إلهي ليقع "القدر" وتقوم "الأسواق" فيربح الرابحون من "التجار" الذين استجابوا لنداء الله تعالى (هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم)، ويسقط



الذين استجابوا لمكر الأعداء (**و لا يزالون يقاتلونكم حتى يردّوكم عن دينكم إن استطاعوا ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأئك الذين حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة وأولئك أصحاب النّار هم فيها خالدون**).

هذه "الخامة" ستميل دوماً لكنها لن تموت، وستعود دوماً بعد كل ميلٍ قوة وارتفاعاً، فالفوز والعاقبة لأهل هذه "الخامة" مهما تألموا خلال إنحنائهم.

فيا أهل التوحيد من مجاهدين وعلماء ودعاة وعبّاد أنتم ثمار هذه الخامة اللينة القوية العطرة، عصارتها فيكم، وروحها تمتد إلى قلوبكم، تمدكم حين تحموها، وتعطيكم حين تسقوها بدمائكم، وكونوا على يقين أن أعداء الله سيسخرون، وأن الساقطين من فروع هذه الخامة ما سقطوا زهداً بها وترفهاً عنها لكنهم سقطوا لأن أرواحهم ماتت وانقطع الدم الواصل بينهم وبين نبتة الحق، أما إن سألتهم عن روح هذه النبتة فإليكم الجواب:



الحديث الثامن والثلاثون

عن أبي الأشعري رضي الله عنه قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم (مثل الذي يذكر ربّه والذي لا يذكره مثل الحي والميّت).

لأنها رحلة الأرواح، فهي رحلة الأحاسيس والمشاعر، رحلة الدمعة الخائفة تتبعها الدمعة الراجية، فيها تبصر النفس تاريخها السائر من عالم الذر حين خاطبها الملك العظيم: **(ألست بربّكم)** فقالت: بلى، فحملت الأمانة ثقيلة عظيمة، وتدفقت مواكب النور يقودها الأنبياء ويحطوها الحواريون، وللركب هزيج هو غناء الوجود الواكب للقافلة، سموات وأرضين وجبال وشجر ودواب ونجوم وأفلاك وبحار كلها تردد تسبيح الملك العظيم فوق العرش وتحمده:

اللهم لك الحمد أنت قيّام السّموات والأرض ومن فيهنّ.

ولك الحمد أنت نور السّموات والأرض ومن فيهنّ.

ولك الحمد أنت ملك السموات والأرض ومن فيهنّ.

ولك الحمد أنت ربّ السّموات والأرض ومن فيهنّ.

هذه رحلة القوافل الهزجة التي يباهي بها الملك ملائكته، هؤلاء أوليائي وأحبابي وعبيدي، إنها قوافل الأرواح الطاهرة الطيبة، تستعين على ثقل الأمانة بالكنوز الآتية من تحت العرش **(لا حول ولا قوة إلا بالله)** وتقوى أرواحهم بالباقيات الصالحات قوتاً وغذاءً: **(سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر)**، فتنشأ علاقة الحب حيث يلهج الحبيب بذكر حبيبه **(كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان حبيبتان إلى الرّحمن، سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم)** فتنشط الأرواح المتعبة وتقتحم العقبة وراء العقبة لتبلغ المراد.

في الأرض جيف، خشب مسندة، فيها جمال الصور، ولها صراخ وهملجة، تملأ جنبات محيطهم الحقير، لهم نتن الرحم العفنة، مقيمون على أدنى من جناح بعوضة، من أجلها يموتون، ويتنافسون على غبارها، ويتباهون كالكلاب على العظام ويحسبون أنهم يحسنون صنعاً **(و منهم من يستمعون إليك، أفأنت تسمع الصّمّ ولو كانوا لا يعقلون، ومنهم من ينظر إليك أفأنت تهدي العميَ ولو كانوا لا يبصرون)**.

وتتكرر العبرة إذ يخرج **(على قومه في زينته)** فيفعل سحر البريق الكاذب أثره على الجهلة فيصرخون: **(يا ليت لنا مثل ما أوتي قارون إنّه لذو حظّ عظيم)** فيعظ العالمون بالحقائق: **(قال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحاً ولا يلقّاها إلا الصّابرون)**.

تلك محنة البصيرة الحية بذكر الله أمام الجموع التائهة ببهرج العاجلة.



ويمضي ركب الحياة والأرواح مبكرة على كل صعد، مسبحاً في كل واد، تشهد له ذرات الأرض والهواء والشجر والدواب، وتصلي عليه وتستغفر له ملائكة الأرض والسماء.

هذه هي الحياة، حياة في الأنفاس والأرواح، والباقي " ملعون مطرود " فالدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ذكر الله وما والاه وعالماً ومتعلماً.

- (الباقيات الصّالحات خير من الدّنيا وما فيها).
- (ركعتا الفجر خير من الدّنيا وما فيها).
- (كل سجدة لعابد ترفعه درجة).

هذه هي الحقائق والكنوز، يطويها العاقلون في سر، فتحيي أرواحهم، لأن الأشياء ليس بوجودها فقط لكن بقيامها على مقصد وجودها، وأعظم المقاصد هو عبادة هو عبادة الله الجليل، حينها تكون فيها الأرواح، فذكر الله تعالى هو روح هذا الوجود، وحين تنتهي من ألسنة الخلق كلمة التوحيد تقوم الساعة وينتهي الوجود، إذ تقوم الساعة وليس على الأرض رجل يقول: الله. حينها لا تبقى إلا الجيف النتنة، وقود جهنم.

في ركب الدعاة والمجاهدين والعلماء والعبّاد وتركوا الحياة فإن (مسّهم طائف من الشيطان تذكّروا فإذا هم مبصرون).

معهم تطمئن القلوب: (ألا بذكر الله تطمئن القلوب).

معهم كل الصفقات رابحة، إن مسهم خير شكروا وإن مسهم ضر صبروا، فكل أمرهم لهم خير معهم إن قتلت فرحمة وإن مت فرحمة: (ولئن قتلتم في سبيل الله أو متّم لمغفرة من الله ورحمة خير مّما يجمعون).

معهم صحبة الملائكة، فما من قوم جلسوا يذكرون الله إلا حفّتهم الملائكة.

هذا هو ركب الأحياء فلا تعد عيناك عنهم، فبعد أن قصّ الله على حبيبه ذكر الفتية الغرباء الذين هاجروا فراراً بدينهم، والعالم بأمواجه مشغول عنهم، مشغول بصفقاته وهرج أهله وتقلب الأموال والقوافل فيه، كل هذا التاريخ العريض مضى، مضى ولم يذكر بشيء، لكنه وقف متأملاً عند هؤلاء " الفتية "، خلّد الله ذكرهم في كتابه العظيم، وقص الحكاية على العالم لأن هؤلاء هم علامات التاريخ فقط، ليس الملوك ولا الأثرياء ولا القواد، بل هؤلاء "الفتية" الضعفاء، يأوون إلى غار (سبعة وثامنهم كلبهم)، بلا طبل ولا مزمار، ولا مواكب، ويسدل الزمن عليهم رداءه بلا ذكر كاذب مبهرج، بعد ذكر هؤلاء "الأعيان" يقول الله لحبيبه المصطفى صلى الله عليه وسلم: (واصبر نفسك مع الذين يدعون ربّهم بالغداة والعشيّ يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا، ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتّبع هواه وكان أمره فرطا)، فمع مثل هؤلاء كن.



هذا هو تاريخ "الفتيان"، تاريخ خاص لا تسجل فيه أعداد القصور، ولا أطنان الأموال، ولا عدد الجنــود، لا تسجل فيه زينة الدنيا، فإن أردت هذه فاصرف وجهك عن هؤلاء، وكن هناك حيث الغافلين عن ذكر الله، هناك ستجد كل ما تريد من زينة الحياة الدنيا، ستجد وزارة عند فرعون، وستجد مالاً عند قارون، وستجد كــل مــا تشتهي نفسك، وستلغ في ذلك كالكلب، لكن مالك إلى لا شيء في الدنيا والعذاب في الآخرة.

مع "الفتيان"، مع الذاكرين لله تعالى يكتب تاريخ آخر، تاريخ بدري وأحدي وخندقي، تاريخ يؤقت علــى إيقاع الدماء والشهداء، وتصبغ أيامه بفتية يهاجرون، وفتية يُأسرون، وفتية يَقتلون ويُقتلون، ويوم نُسَرّ ويوم نُساء، وحبيب يخطف على بئر معونة، ويوماً نجوع فنسأل الله ويوم نشبع فنحمد الله.

هذا هو تاريخ الأحياء، وهكذا تدخل مع "الصالحين"، وأما هناك فهو تاريخ "الأموات" إن كان للأمــوات والجيف تاريخ.





الحديث التاسع والثلاثون

قال ابن عبّاس رضي الله عنه: "بتّ عند خالتي ميمونة (زوج النّبي صلى الله عليه وسلم) فقلت لأنظرنّ إلى صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فطرحت لرسول الله وسادة، فنام رسول الله صلى الله عليه وسلم في طولها، فجعل يمسح النوم عن وجهه فقرأ الآيات العشر الأواخر من آل عمران حتى ختم ثمّ أتى سقاء معلّقاً فأخذه فتوضّأ ثم قام يصلي".

هكذا الكمال: ذكر وفكر، (إنّ في خلق السّموات والأرض واختلاف الليل والنّهار لآيات لأولي الألباب، الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض ربّنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك فقنا عذاب النّار)، ذكر لله ربّ الوجود، وذكر للغيب (إنا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدّار)، وذكر لكتاب ربنا، وهكذا تحصل الروح، ولابد من فكر، وهو جهد العقل في التأمل والنظر، من أجل إدراك السنن للسير فيها وتسخير الخلق الذي خلق لنا (و سخّر لكم ما في السّموات والأرض)، فامتطاء الشيء لا يكون إلا بإتقان وذلك من خلال معرفة سنة الله فيه، وكلما ازدادت معرفة الإنسان بالسنة كلما أفاد منها وسخرها فكانت له، والذين يعرضون عن السنن هم في وديان الباطل، وهم بحق يقولون بفعالهم: "هذا باطل"، والباطل ما لا نفع فيه، وهو اتهام الجهلة لحكمة الرب وقدوسيته، فإن الله لم يخلق شيئاً في السموات والأرض إلا من أجل أن ينتفع به الإنسان، ودخول أي شيء لابد له من مفتاح، والمفتاح هو العلم بقدر هذا الشيء حتى يتم القياد، والآيات الكونية هي علامات، فالآية معناها العلاقة، أي فيها معنى، وأول هذه المعاني هي الدلالة على خالقها وعظمته وحكمته، وهذا لا يقع على حقيقته إلا بإدراك صحيح لهذه الآيات، وأجهل الناس بربهم هم الذين يفهمون الكون على غير حقيقته، فهم أهل البدع حقاً، وما لهم حال من فهم الشرع على غير لأنهم عطلوا حكمة الرب في الوجود فلن يستفيدوا منه بشيء وهو الذي خلقه الله وسخره من أجلهم.

ماذا ينتفع المرء من "النفط" مثلاً وهو يظنه مارداً من الجن إن رآه استعاذ بالله من الشيطان وهرب منه؟!، وهل استعاذته بالله هي ذكر حقاً؟!

ماذا ينتفع المرء من "غزو الأعداء" وهو يظن أن علاجهم يكون بقيام الليل دون مواجهتهم ومقاتلتهم؟!

إن الذكر لا يؤتي ثماره من اطمئنان النفس وتحقيق الوعد إلا إن وضع مع الفكر السليم الذي ينتج الفهم السنني الحق، فكم من ذاكرين لله بأفكار الخرافة والإعراض عن السنن فلم يتحصلوا الوعود الإلهية من النصر والتمكين والعزة. (الذين يذكرون... ويتفكرون) والنتيجة: (ما خلقت هذا باطلاً)، فكما أن الذكر الذي يحقق

الخوف والرجاء دين فكذلك الفكر الذي يحقق عظمة الله في القلوب وذلك بإدراك إتقان الخلق وإبداع الوجود وحكمة التكوين، فولاية الله قيام بالشرع ودوام ذكر على كل حال، وتفكر في الخلق، وهذا هو الفقه، بصيرة حاضرة في عالم الشهادة وعالم الغيب، تراقب حركة الغيب وترعى حركة الشهادة، فالغافلون عن ذكر الله ليسوا بأولياء، والغافلون عن حركة الشهادة ليسوا بأولياء، وما أعظم هذه الآيات حين سمّت اجتماع هذين الأمرين في الرجل أنهم: (أولي الألباب)، فإغلاق العين عن النظر وإغلاق العقل عن الفكر وإغلاق الفم عن الذكر فساد للخلق وذهاب لعقولهم، وهذا دين لا خيرية فيه لغافل ولا لجاهل ولا لغبي ولا لهارب عن المواجهة ولا يحمي عن حركة الوجود، ومن عجائب المنتسبين له أنهم جاؤوا إلى كل هذه القوى العظيمة وهذه الإرشادات الهادية فقلبوها إلى ضدها إذ صار الولي هو المعتزل عن حركة الوجود، وصار المتدين هو الذي ينتكس إلى داخله، ومع فكرة يسيرة في صورة النبوة في القرآن نراها صورة الحضور والصراع والمواجهة، لا يوجد فيها هروب وانتكاسة إلى الداخل بل حضور يحقق الصدمات مع الخصومة حتى تجري السنن إلى آخرها.

إن عظمة الله في القلوب إنما تتحقق بمعرفة قدرته ولا تعرف القدرة إلا بمعرفة الخلق، وهذا لا يعرف إلا بالفكر والنظر والبحث والسير والتتبع والدراسة، وهذا باب يجب أن تتعلم هذه الأمة أنه شق لا تكتمل الولاية إلا به، ولا يصح أن ينسب أحد إلى (أولي الألباب) الذين مُدحوا في القرآن إلا بتحققه فيهم.

إن أكثر الناس حاجة لمعرفة سنن الخلق وإعمال الفكر وإدامة الذكر إنما هم الذين يصارعون الشيطان وجنده، فهؤلاء الكفرة عندهم بعض عوامل الغلبة كالكثرة في كل معركة وعندهم المال والسلطان، وبالتالي لا يمكن تحقق النصر عليهم إلا بأخذ أهل الحق العوامل التي أضلهم عنها، وهذا لا يكون إلا بتعامل المجاهدين مع السنن ورعايتهم لها، وقد جعل الله سبب هزيمة الكفار مع كثرتهم أنهم لا يفقهون، فقال سبحانه: **(يا أيّها النّبيّ حرّض المؤمنين على القتال، إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين، وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفاً من الذين كفروا بأنّهم قوم لا يفقهون)**، فالصراع إذاً بين من يفقه الحق من الشرع والسنن وبين الضال عن الشرع والسنن، بين أولي الألباب وبين الضالين، والضالون عن إعمال العقل والتفكر مآلهم الخسارة أينما كانوا وتحت أي شعار تجمعوا، إن قواعد الصراع هي سنن الحق في الخلق، وإن عوامل البقاء إن أخطأها أهل الشرع لم ينفعهم أيّ ادعاء وسيقع عليهم البلاء بلا محاباة.

إن أردتم النجاح فأديموا النظر والتفكر، واجعلوا نظركم وفكركم في السموات والأرض وفي الخلق المادي وفي الليل والنهار في الخلق المعنوي إذ الليل والنهار أواني الحوادث والوقائع –، ففكرة للتسخير وفكرة للاعتبار، وذكر تكونوا أولياء لله حقاً.



درتان:

- ☒ زار مسافر محدّثٌ الإمام أحمد وبات عنده، فأعد له الإمام أحمد وضوءه فلما جاءه صباحاً وجد وضوءه لم يمس، واستيقظ الرجل صباحاً، فعجب منه الإمام وقال له: محدّث لا يقوم الليل!! فجعل الرجل يعتذر أنه مسافر، والإمام يكرر: محدّث لا يقوم الليل!! محدّث لا يقوم الليل!!
- ☒ كان مما قاله الشيخ أبو الحسن الندوي رحمه الله: أن السمة التي لا تخطئ المجدّدين في تاريخنا هي قيام الليل، إذ لم يوجد مصلح في هذه الأمة لا يعرف عنه هذه السمة: قيام الليل.



الحديث الأربعون

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النّبي صلى الله عليه وسلم: (من آمن بالله ورسوله وأقام الصلاة وصام رمضان كان حقاً على الله أن يدخله الجنة، هاجر في سبيل الله أو جلس في أرضه التي ولد فيها، قالوا: يا رسول الله، أفلا ننبئ النّاس بذلك، قال: إنّ في الجنّة مائة درجة أعدّها الله للمجاهدين في سبيل الله، كل درجتين ما بينهما كما بين السماء والأرض، فإذا سألتم الله فسلوه الفردوس، فإنه أوسط الجنّة وأعلى الجنّة، وفوقه عرش الرّحمن، ومنه تفجّر أنهار الجنّة).

هذه ركائب الرجاء، وكذلك نجائب السبق، ميدان يسع كل الهمم والإرادات، فهذا دين رب العالمين جميعاً، يسع العالمين جميعاً بيسر الحمائل، فإن أثقلتك الذنوب فلا قنوط إذ قوارب النجاة مادة لك أذرعها تناديك ليل نهار، فالرحمن يمد يده بالليل ليتوب مسيء النهار ويمد يده بالنهار ليتوب مسيء الليل ولو أذنبت في اليوم مائة مرة أو أكثر، ولو أتيت ربك بملء الأرض خطايا ثم استغفرت وجدت الله غفوراً رحيماً، ولو قتلت مائة نفس معصومة ثم رحلت إلى الله سيفرح لك ويأتي إليك أشد مما تأتي إليه، وقد سبقك أن بغياً من بني إسرائيل سقت كلباً عطشاً فشكر الله لها فغفر لها، وإن من الكفر اليأس من رحمة الله، ومما يحبط الذنوب أن تسبّ الله تعالى فتقطع طريق التائبين عنه، فإن رجلاً قال: والله لا يغفر لفلان، فأغضبت مقالته رب العباد وقال: من المتأله علي، اشهدوا أني غفرت لصاحبك وأحبطت عملك.

افتحوا الأبواب ولا تضيقوا واسعاً فربكم واسع عليم، وانثروا للخلق عناوين الرحمة فكتاب ربكم عنوانه: (بسم الله الرّحمن الرّحيم)، وإياكم والإلحاد في أسمائه، فإن رحمته سبقت غضبه.

إن جاءكم مثل "ضمام بي ثعلبة" فقال: والله لا أزيد ولا أنقص عن الصلاة المفروضة والزكاة المقدرة وصوم رمضان وحج البيت فقولوا: (أفلح ودخل الجنّة إن صدق).

إن جاءكم مثل صفوان بن المعطل، وقد شكت زوجته حاله لرسول الله صلى الله عليه وسلم أن صلاة الفجر تفوته بسبب النوم من غير تقصير فقولوا: (ليس في النّوم تفريط).

أكثروا من قول: (لا حرج، فالرّاحمون يرحمهم الرّحمن).

لا تشددوا فيشدد الله عليكم، ولا تكثروا على الناس فتفتنوا الناس، إذ يسعكم معهم صغار المفصّل.



ثم من جاءكم وقد علت همته لحظة فاهدوه إلى رشده، ومن جاءكم يطلب منحة فارفعوا له الأجر، ولأهل العوالي درجات السبق وقصب السبْق عرش الرحمن.

هذا دين الله يقبل القليل ويدفع للزيادة ويرفع الواقع لأن الصراع بين منهج الله ومنهج الشيطان وجنده.

تأملوا قوله تعالى:

(يريد الله ليبيّن لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم والله عليم حكيم، والله يريد أن يتوب عليكم ويريد الذين يتّبعون الشهّوات أن تميلوا ميلاً عظيماً، يريد الله أن يخفّف عنكم وخلق الإنسان ضعيفا)

هذه هي المعادلة، فالله يهدي ويتوب ويخفف لأن الإنسان ضعيف، ومنهج غيره شهوة عاصية وميل عن الحق، فمع من أنت يا عبد الله؟

علّموا الناس الواجب، ثم أعلموهم بالدرجات، فأبقوا في النفوس الرجاء وادفعوهم للعوالي، وأعلموهم أن الجهاد هو باب الولوج إلى الفردوس الذي سقفه عرش الرحمن وهو أفضل الجنة وأعلاها ومنه تتفجر أنهار الجنة، فكما أن المجاهدين بأيديهم تتفجر الخيرات في هذه الدنيا، وبفعالهم تسعى القلوب هداية، **(فلولا دفع النّاس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكنّ الله ذو فضل على العالمين)** وبالجهاد حياة البشرية **(استجيبوا لله وللرّسول إذا دعاكم لما يحييكم)** أي الجهاد، فحق للمجاهدين أن يكونوا عند نبع النعيم في جنة الرحمن، في الفردوس الأعلى، فاللهم اجعلنا من أهله.





الحديث الحادي والأربعون

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النّبي صلى الله عليه وسلم قال: (قال الله تبارك وتعالى: أعددت لعبادي الصّالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر) قال أبو هريرة: "إقرؤوا إن شئتم (فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرّة أعين)".

على موائد الكريم ترتاح الركائب وتلقي غبار السفر وشعثاءه، فقد لاقت هذه القوافل الكثير من المكاره، وكثرت فيها جراح الكتائب، وحطمها الناس من كل جانب، فآن لها أن تقطف الأجور وتذوق النعيم، مرت هذه الركائب جوعى وهي الأسد الضواري والكلاب حولها تلغ في الدنيا، مرت وهي صابرة لاهثة، صابرة عما ترى ولاهثة للنصب التي علقت في قلبها: أن الراحة فقط بلقاء الرحمن.

إي والله لقد جهدت هذه الركائب بأحمال كالجبال، فاشتاقت أرواحها إلى الجوار وصحبة السيد العظيم الجليل عند عرشه **(ربّ ابن لي عندك بيتاً في الجنّة ونجني من فرعون وعمله)**.

هل هناك كتاب يطبب دون ذكر الجنة؟!، وهل هناك مجلس يتزكى بغير عرف طيبها ونسيمها؟! أليست هي من شغلت هذه القلوب المسافرة عن نعيم يعرض هنا وهناك ألهى الكثيرين عن ترحالهم؟! أليست هي من أنست المتألمين آلامهم تحت سياط الجلاد وقيد السجان وغبار العساكر؟! أليست هي من أقلقت الجنوب عن مضاجعها فانتصبت الأقدام لتناجي الأرواح حبيبها ومولاها؟! أليست هي من هوّنت خوض الصفوف واقتحام الأهوال؟! أليست هي من خففت آلام هجرة الأرواح والأولاد والأوطان؟! أليست هي من أبكى العيون ذكرها والشوق إليها؟! أليست هي من أضحكت الغافلين على هؤلاء الفقراء وهم يصرخون فيهم: ما وعدتم إلا غروراً؟! أليست هي الجميلة الرائعة التي ألهت القلوب عن طعامها وشرابها فصامت محتسبة صابرة؟! إذاً أبشروا فهناك ستحطون أثقالكم وأحمالكم وآلامكم وسترون ما لا تعلمون.

هناك مائدة الكريم، ومائدة القيوم، ومائدة القدير، ومائدة الغني، وإذا كانت الموائد على قدر الكرم والغنى فكيف هي مائدة الكريم الذي له يدان هما يمين كل منهما سخاء لا يغيض عطاء واحدة منهما؟! وكيف هي مائدة الغني الذي أمره كن فيكون؟! فهل لهذا العقل المحدود القاصر أن يتصور حدود عطاء هذا الأول الذي ليس قبله شيء والآخر الذي ليس بعده شيء؟!

هناك حيث يجتمع الحبيب مع حبيبه بعد طول مسير: فكم ناجاه غيباً!، وكم بكى له ورجاه وراقبه غيباً! وكم ذكره في سره وعلى لسانه وأفاض في حمده وتسبيحه وتكبيره وتوحيده وهو يرى فقط آثاره؟! فالآن جاء



دور كشف العذار ورفع الحجب لينعم هذا المشتاق برؤية الحبيب، فتزهر الوجوه نضرة وبهجة وسروراً، (و وجوه يومئذ ناضرة إلى ربّها ناظرة).

هذه الجنة المخفية الغائبة هي التي أجازت في هذه الدنيا بين عقل بهيمي وعقل رشيد، إذ البهيمة هي التي لا تفهم إلا أن يلوح لها بالشيء أمام عينها لتركض إليه، وأما العقل الرشيد فهو الذي يؤمن بالغيب ويدرك حقيقته حتى وإن غاب عن عينيه.

هذه الجنة هي التي فرقت بين أرواح خبيثة وأرواح علوية، خبيثة لأنها رضيت بالأدنى وقبلت بالعاجلة السريعة وفرطت بالوعد الآتي مع خلوده وروعته وجماله، أرواح خبيثة استمرأت لقيمات قليلة مغموسة بالكفر حيث رفضت أن تؤدي لله حقه، وأن تعرض عن الشهوات النجسة، لكن الأرواح العلوية هي التي صبرت على الهواجر والمكاره وهي على يقين أن الواحة تنتظر وتتزين للراغبين، فهم يشمون أرواحها تهب على أرواحهم فتحيل آلامهم وتعبهم ونصبهم عزيمة وصبراً فوق صبر، أرواحها تداعب أرواحهم فتبسط عليها ندى اليقين الذي يرطب قسوة الحياة وشقاءها.

لقد آمنتم بها غيباً والآن تعيشونها عيناً، ولقد سألتموها رجاءً والآن تحلون بها ملوكاً، ولقد بعتم أنفسكم وأموالكم من أجلها والآن تقبضون المزيد، ثم يحل عليكم الرضوان فلا يسخط عليكم السيد العظيم الجليل.

لقد أدركتم أن سكين النهايات يُنغّص كل نعيم في العاجلة، فكان الموت يسرق الملوك عن عروشهم، ويرحل بالأثرياء عن أموالهم، فطابت نفوسكم إلى أرض الخلود الذي لا ينقطع والنعيم الذي لا يتحول، والسعادة التي لا تنقضي فها هي الآن بين أيديكم (فنعم عقبى الدّار).

لقد تواضعتم معرضين عن العلو والاستكبار وعلمتم أنكم مهما كنتم فكل شيء إلى رماد وعذرة، وكل حي إلى ميت فشاقت نفوسكم إلى مُلْك لا يبلى وسلطان لا يريم، فالآن كل ما رغبتم هو بين أيديكم، صنعه الله بيده، إذ هو الذي "أعده" وحسّنَه وطيبه حينها ستعرفون كيف عطاء هذا الملك العظيم.

هناك حيث يلتقي الإخوان ويجتمعون في مجالس الحديث الطيب والأنفاس والغناء الطاهر والموائد المبسوطة، فيجتمع "التاريخ الحقيقي"، أنبياء وأتباع وحكايات تروي عما مضى وكان.

هناك حيث يطلع "الصالحون" على التاريخ الذاهب حسرة وتبكيتاً وعذاباً وهو منكوس في جهنم، حيث الفراعنة وطواغيت الأرض، وحيث قارون وأمثاله، وحيث الجنود الحمير المغفلين.

هناك حيث الرضوان والخلود وكل ما تشتهيه النفوس، وكل ما يخطر بالبال وفوق ذلك، وهناك حيث النهار فلا ليل، واليقظة فلا سِنَة ولا نوم، والفرح فلا حزن ولا ألم.



كونوا على يقين أن كل ذلك ينتظر ويترقب ويتزين، وما عليكم سوى شد المآزر وجد المسير، ولن يخلف الله وعده.

سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك.

(ربّنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ربّنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا ربّنا ولا تحمّلنا ما لا طاقة لنا به واعف عنّا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين).

الأحد: ٢٥ / محرم / ١٤٢٦
٦ / آذار / ٢٠٠٥



